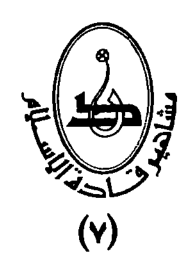

مشاهير قادة الإسلام
خالد بن الوليد
بسام العسلي
٧



(٧)

خالد بن الوليد

بسّام العسلي

دار النفائس

الطبعة الأولى : ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م
الطبعة الخامسة : ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

© دار النفائس
بيروت: ص.ب ١١/٦٣٤٧ - هاتف ٨١٠١٩٤ - برقياً: دانفايسكو

صورة الغلاف : بريشة الفنان خالد العسلي

بسم الله الرحمن الرحيم

من أقوال خالد بن الوليد

كتب خالد إلى ملوك فارس عندما تولى قيادة حرب العراق :

بسم الله الرحمن الرحيم

من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس

أما بعد ، فالحمد لله الذي حل نظامكم ووهن كيدكم وفرق كلمتكم ، ولو لم يفعل ذلك بكم لكان شرأ لكم . فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ونجُوزكم إلى غيركم ، وإلا كان ذلك لكم وأنتم كارهون على غلب ، على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة .

وكتب خالد إلى عامة أهل فارس :

بسم الله الرحمن الرحيم

من خالد بن الوليد إلى مرازبة الفرس . أما بعد فأسلموا تسلموا ، وإلا فاعتقدوا مني الذمة ، وأدوا الجزية ، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الحياة كما تحبون شرب الخمر[١] .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٣٧٠ .

وكتب عياض بن غنم إلى خالد يستمده وقد تكاثر عليه الأعداء فأجابه خالد :

البث قليلاً تأتك الجلائب يحملن آساداً عليها القاشب

كتائب تتبعها كتائب [1]

وكان خالد يردد وهو يهدم العزى يوم فتح مكة :

ياعز كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

وكان سادن « العزى » قد هرب عندما سمع بقدوم «خالد» لهدمها وذلك بعد أن عَلـَّقَ سيفه على الصنم وقال :

أيا عز شدي شدة لا شوى لها على خالد، ألقي القناع وشمري

وياعز إن لم تقتلي اليوم خالداً فبوئي باثم عاجل، أو تنصري

وقال خالد وهو يفارق حياة الدنيا :

« شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وما في جسمي -جسدي- موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، ثم ها أناذا أموت على فراشي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء » [2].

(١) تاريخ الطبري ٣/٣٧٧ .

(٢) اسد الغابة ٢/٩٥ والاستيعاب ٢/٤٠

... وقالوا في خالد

قال رسول الله ﷺ عن خالد :

« نعم عبد الله وأخو العشيرة وسيف من سيوف الله سله الله على الكفار والمنافقين » [١]

وقال « أبو بكر » رضي الله عنه يجيب «عمر بن الخطاب» الذي طلب عزل « خالد » :

« يا عمر ! ما كنت لأشيم سيفاً سله الله على الكافرين »

وقال « أبو بكر » وقد وصلته اخبار انتصارات « خالد » في معركة « اليس » في العراق :

« يا معشر قريش ! عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله ، واعجزت النساء ان ينشؤوا مثل خالد »[٢]

وعندما بلغ أهل « دومة الجندل » في العراق بتقدم خالد

---

(١) الاستيعاب ٢/٤٢٩ .

(٢) الطبري ٣/٢٥٩ وفي الكامل – ابن الأثير ٢/١٤٩ « عجزت النساء ان يلدن مثل خالد » .

ابن الوليد ، عقدوا مؤتمراً للحرب . فوقف فيهم « أكيدر بن عبد الملك » ناصحاً لقومه :

« لا أحد أيمن طائراً منه في حرب ، ولا يقف في وجه خالد قوم ابداً قلوا او كثروا إلا انهزموا منه ، فأطيعوني وصالحوا القوم ». وخالفه قومه ، وقرروا الحرب ، فقال لهم « أكيدر » « لن امالئكم على حرب خالد - فشأنكم » .

وقال « عمرو بن العاص » يصف خالداً :

« له أناة القطة ووثوب الأسد »[1]

وعندما عزل امير المؤمنين« عمر بن الخطاب » قائده« خالد ابن الوليد » كتب إلى الأمصار :

« إني لم اعزل خالداً عن سخط ولا عن خيانة ، ولكن الناس فخموه وفتنوا به ، فخفت ان يوكلوا اليه ، فأحببت ان يعلموا ان الله هو الصانع ، وان لا يكونوا بعرض فتنة » وقال عمر « والله لأنزعن خالداً حتى يعلم ان الله ينصر دينه »[2] وعندما بلغ عمر نبأ وفاة خالد في مدينة « حمص »

قال : قد ثلم في الاسلام ثلمة لا ترتق وقال ايضاً : كان والله سداداً لنحور العدو ، ميمون النقيبة [3] .

---

(١) اليعقوبي ٢/١٠٨ .
(٢) الاستيعاب ٢/٧٩٤ .
(٣) ابن عساكر ٧١٤ .

وانتشر خبر موت خالد وخرجت نساء « بني مخزوم » يندبن« فتى العشيرة » وسمع عمر صوت البكاء والعويـــل ، وحمل سوطه وهم بالخروج لمنع البكاء والنحيب - كعادته - ثم سمع صوت بكاء ابنته حفصة - زوجة النبي - وفكر عمر لحظة ، ثم عاد فعلق سوطه ، وقال « وما عليهن ان يبكين ابا سليمان ما لم يكن نقع او لقلقه ، فعلى مثـــل ابي سليمان تبكي البواكي » واستمر الموكب الحزين ، ويقال (انه لم تبق امرأة من بني المغيرة إلا وضعت لمتها - اي حلقت شعرها لتصفها - على قبر خالد) .وعندما احس امير المؤمنين عمر بدنو الأجل، قال « لو ادركت خالد بن الوليد لوليته ، فاذا قدمت على ربي فسألني من وليت على امـــة محمد قلت أي ربي سمعت عبدك ونبيك يقول : خالد سيف من سيوف الله ، سله الله على المشركين [1] .

(١) الامامة والسياسة - ابن قتيبة ١/٢٤ والأغاني ١٥/٢٦ و١٩/٨٩ .

بعض ما قاله « المستشرقون » في خالد

«خالد بن الوليد» هو قائد لامع، موهوب للقيادة ،انتصر المسلمون بفضله عـدة انتصارات ، منحـه محمد صلى الله عليه وسلم لقب « سيف الله »[١] (الموسوعة الاسلامية) .

« نابليون »شبيه بخالد بن الوليد لم يأبه لشيء إلا للحرب، ولم يرغب ان يتعلم شيئاً سوى الحرب [٢] (موللر)

«خالد بن الوليد» انه قائد كبير ، لم يغلب او يقهر ، ذكي ، وممتاز في قيادته [٣] (درمنغهام).

« خالد بن الوليد » انه أستاذي في فن الحرب[٤]«غولتز».

رغم عزل خالد بن الوليد ـ عن قيادة جيش الشام ـ فقد ظل في الواقع هو القوة الدافعة في الحملة [٥] .

---

(١) Ency. of Islam. (Khaled Ben AL Walid)V.4 P. 878 - 879.

(٢) موللر هو مؤرخ الماني Der. - Islam - Muller.

(٣) La-vie de Mahomet-Par E.Dermengham.P.P. 94, 212; 215, 271

(٤) Nouveau Larousse universel. T. 1. Coltz.

وفون « غولتز » هو جنرال الماني ومؤلف كتاب « الأمة المسلحة » ولد في العام ١٨٤٣ ، وكلف بتنظيم الجيش العثماني في العام ١٨٨٣ ثم قاد الجيشين التركيين الأول والسادس أثناء الحرب العالمية الأولى ما بين العامين ١٩١٥ - ١٩١٦ .

(٥) تاريخ الشعوب الاسلامية ـ كارل بروكلمان ـ ص ٩٥ .

المقدمة

« ما ليلة يهدى إلي فيها عروس انا لها محب ،
او أبشر فيهـــا بغلام ، أحب إلي من ليلة
شديدة الجليد ، في سرية من المهاجرين أصبح
بهم العدو ، فعليكم بالجهاد » .

(خالد بن الوليد)
الاصابه ٢/٩٩

« خالد بن الوليد » علم من أعلام المجـاهدين في سبيل الله ، وعالم وحده في فن القيادة وإدارة الحرب ، اكتسب شهرة واسعة في حياته الدنيا ، إذ أحب المسلمون سيفه ، وذعر أعداء المسلمين من بطشه ، فكان في ذلك بعض عوامل نصره ، هؤلاء الذين أحبوا سيفه منحوه الدعم والثقة والاخلاص وأولئك الذين خافوه تخلوا عن سيوفهم وقدموها له ، وهم إن لم يفعلوا ذلك وجابهوه اضطروا في النهاية إلى الاذعان والاستسلام بعـــد أن يدركهم الفناء . وأخذت اسطورة « خالد » في التعاظم من خلال العلاقة الجدلية

في حوار الارادات بين الأصدقاء والأعداء . ومضى « خالد » إلى لقاء ربه راضياً مرضياً ، لكن الاسطورة لم تتوقف ، وإنما أخذت في التعاظم يوماً بعد يوم . فقد أخذت الآجيال تتناقل « سيرته » جيلاً بعد جيل ، وأقبل قادة الدنيا ينهلون من مورد « خالد » الخالد فناً وعلماً ، وهل ادارة الحرب غير علم له مبادئه وأسسه وفن له قواعده ومعطياته ؟... ولكن ، وقبل المضي بعيداً في سيرة « خالد » يمكن التساؤل : من أين تعلم هذا القائد مبادىء الحرب وفن القتال؟ انه لم يتعلمها من كلية أو معهد وانما تعلمها من مدرسة الاسلام فكانت العقيدة الدينية الاسلامية ، والعقيدة القتالية الاسلامية المنبثقة عنها هي الاساس الفكري الذي رسم لخالد خطواته الصحيحة على درب القيادة . ولكن هل كان « خالد » فتى غراً قبل الاسلام ؟ يقيناً لا ! فقد كان « خالد » يضج بالحياة ، وكان موهوباً ، وقد أظهرت معاركه ضد المسلمين في موقعة أُحد وغزوة الخندق وغزوة الحديبية انه فارس على درجة عالية من الكفاءة ، ولكن تلك الكفاءة كانت محددة القدرة ، محددة الابعاد ، وذلك بسبب حاجتها لتوفر عاملين أساسيين هما :

١ – عدم التكامل في العقيدة القتالية .

٢ – عدم التوافق بين كفاءة القائد وقدرة المقاتلين. وعندما أسلم «خالد» اكتملت له كل عوامل النصر ، فسار بجيش المجاهدين في سبيل الله وانتقل بهم من نصر إلى نصر ، ومن خلال تلك الانتصارات تعاظمت «سيرة القائد العظيم» حتى أصبحت حديث

الدنيا . ومن خلال هذه العوامل ذاتها ، فقد مهدت بيئة الاسلام الخصبة لظهور تلك الفئة الفريدة من القادة الذين لم يكن بينهم فاضل ومفضول ، والذين استطاعوا فرض وجودهم على عالمهم ، فأضاء بهم فن الحرب ، وأشرق لهم علم الحرب ، وقدموا للدنيا علماً وفناً خالدين . وهكذا فقد كانت العوامل التي كونت شخصية القائد « خالد بن الوليد » ثلاثة : هي الكفاءة القيادية وفن الحرب الذي استمد قواعده وأسسه من العقيدة القتالية الاسلامية ، ثم جاء جيش المجاهدين في سبيل الله ليساعد « خالد » على تحقيق ما حققه وإكمال ما أنجزه .

مضى « خالد » للقاء ربه ، ولكن شعلة « فن الحرب » التي حملها لا زالت تتزايد ألقاً ووهجاً ، وكلما جاء جيل عاد إلى سيرة « خالد » فقرأها وأعاد صياغتها باسلوب العصر الذي يعيشه ، وبلغة الجيل الذي يعاصره ، فبقيت قصة « خالد » متجددة على الدوام ، تعيش كل جيل ، وتساير كل عصر .

ضمن هذا الاطار ، تصدى لسيرة « خالد بن الوليد » في عصرنا الحديث ثلاثة من كبار كتابنا العسكريين هم : « العقيد الركن ياسين سويد » – لبنان – واللواء الركن « محمود شيت خطاب » – العراق – والجنرال « أ. أكرم » – باكستان – الذي ترجمه « العميد الركن صبحي الجابي » – سوريا – وكلهم أجاد الكتاب وعالج حياة « خالد » وسيرته القيادية باسلوبه ، ووفق المنهج الذي حدده لبحثه ودراسته . وفي الواقع ، هناك ظاهرة مميزة ورائعة في عمل الكتاب العسكريين الذين سبقوا لمعالجة سيرة

« خالد بن الوليد » فجميعهم أعرضوا عن كتابات « المستشرقين والمستغربين » وكلهم رجعوا إلى موارد واحدة هي تاريخ الأجداد الأقدمين من أمثال « الطبري وابن الأثير والبلاذري وابن قتيبة وابن هشام وابن حزم وأمثالهم » ثم عادوا إلى أنفسهم وإلى أسلوبهم وإلى قاعدتهم في العلم والمعرفة، وركزوا جهدهم لتحليل حياة القائد العظيم من منطلقات واحدة ، وليس ذلك إلا برهاناً على متطلبات العصر الذي نعيشه، انها الحاجة إلى التمسك بتراث الأجداد. والتشبث بالاصالة التي أعطت الدنيا علماً وفناً ثم عادت لاستيراد هذا العلم والفن فوجدت « الاغتراب ». انها روح العصر الذي نعيشه . روح التجديد للاصالة التي أنبتت شجرة وارفة الظلال ، ثم جاءت الهجمات لتجتث جذور الشجرة اليانعة ولتحولها إلى « مجرد نبات متيبس » تعصف به كل ريح .

رجعت من جولتي الواسعة في كتابات الأقدمين والمحدثين ، ووقفت وأنا في حيرة أمام محيط « خالد بن الوليد » وتساءلت: هل من الضروري اضافة قطرة إلى هذا المحيط وأنا أقتحمه ؟. ان القضية ليست مجرد استكمال لمجموعة « مشاهير قادة الإسلام » وإنما القضية هي في إضافة ما هو جديد . وصحيح إنني سأنطلق من ذات الأرضية التي انطلق منها الاخوة الكتاب العسكريون الذين سبقوني إلا أن أسلوب التحليل سيكون مغايراً دون ريب، وقد يكون في ذلك فائدته ومتعته ، وفكرت أن أعرض « عن السيرة » وأكتفي بالتحليل لحياة « قائدنا العظيم » ولكني وجدت

أن ذلك سيفرض على القــارىء العودة لأكثر من كتاب بهدف اكمال صورة الموقف،وعزمت في النهايةعلى أن أضع الكتابَوفق الاسلوب والمنهج اللذين اتبعتهما في المجموعة السابقة .

وبعد فهذا جهد المقلّ في الورود من محيط لا نهاية له، وإنني أرجو مخلصاًوأنا أضيف قطرة أخرى إلى محيط «خالدبن الوليد» أن يكون ذلك رفداً في الطريق إلى مزيد من المعرفة ، معرفة تراث الآباء والأجداد ، عسى أن تكون هذه المعرفة منــــارة لإضاءة درب أصالتنا . والله أسأله التوفيق .

بسام العسلي

موجز حياة خالد بن الوليد

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٢٥ ق . هـ	٥٩٧	ميلاد « خالد بن الوليد » .
٣ ب . هـ	٦٢٤	خالد مع المشركين في غزوة الخندق .
٥ هـ	٦٢٦	خالد مع المشركين في غزوة الحديبية .
٧ هـ	٦٢٨	خالد مع المشركين في عمرة القضاء .
٨ هـ	٦٢٩	اسلام خالد واشتراكه في غزوة مؤتة ، وفتح مكة ، وهدم العزى ، وغزوة « بني جذيمة » و « يوم حنين » و « غزوة الطائف » .
٩ هـ	٦٣٠	غزوة « بني المصطلق » و « تبوك » و « هدم ود » و«غزوة دومة الجندل » .
١٠ هـ	٦٣١	خالد في نجران واليمن .

١١ هـ	٦٣٢	في حروب الردة مع «طليحة» و« مالك بن نويرة » واليمامة.
١٢ هـ	٦٣٣	خالد في قيـــادة فتح العراق وادارة معارك « المذار » و« الولجة »و« اليس » و« امغيشيا » و« الحيرة »و«الأنبار» و« عين التمر » و« دومـة الجندل » و« المصيخ » و« الثني والزمل » و« الفراض » و« حجة خالد » .
١٣ هـ	٦٣٤	تحرك خالد إلى الشام ، ومواقعــه في « قراقر » و« سوى » و« تدمـــر » و« قصم » و« مرج راهط » و« بصرى » و« اليرموك » و« فتح دمشق » و« فحل » .
١٥ هـ	٦٣٥	مواقع خالد « مع أبي عبيدة » في « مرج الروم »و« حمص » و « قنسرين » و« مرعش » و« حصن الحدث » — ما وراء الدروب — .
٢١ هـ	٦٤١	وفاة خالد بن الوليد عن عمر يناهز ٤٦ سنة هجرية «٤٤سنة ميلادية تقريباً » .



الفَصلُ الأوّل

خالد بن الوليد

١ ـ خالد بن الوليد في الجاهلية

٢ ـ خالد بن الوليد في الاسلام

٣ ـ حروب الردة

٤ ـ على جبهة العراق

٥ ـ في الشام



خالد بن الوليد

« .. ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله »

(من حديث الرسول)

مضى الفارس « خالد بن الوليد » في ظلمة الليل ، وسنابك فرسه تدق الأرض بتصميم وعزم ، فيتجاوب لها قلب الرجل الذي جاوز الاربعين ، انه ينظر من خلال العتمة الموحشة إلى ذلك الضياء الذي أشرق له الكون ، فيرى من خلاله المستقبل ، وينظر وراءه فيجد الظلمة وهي لا زالت تغلف قلوب الناس الذين خلفهم في « مكة » وقبل أن يمضي بعيداً في طريقه إلى الوهج الساطع أبصر في الظلمة شبح فارسين يقتربان منه ، وعرفهما انهما « عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة » وسواء تم ذلك اللقاء على موعد أو غير موعد ، فقد مضى الركب بصمت نحو الهدف المشترك . انهم « أفلاذ أكباد مكة المكرمة » كما وصفهم رسول الله ﷺ . ووجد الفارس الأول في صمت الليل ووحشته

فرصة لاستعادة كلمات أخيه الوليد الذي كتب له منذ عهـــد قريب جداً : (**سألني رسول الله عنك ، فقـال : أين خالد ؟ فقلت : يأتي الله به . فقال : ما مثل « خالد » يجهل الاسلام ، ولو كان جعل نكايتـه وحدهمع المسلمين على المشركين لكان خيراً له ، ولقدمناه على غيره ، فاستدرك يا أخي ما فاتك منـــه ، فقد فاتتك مواطن صالحة**)[1] وارتسمت صورة اللقاء في قلب « خالد » قبل أن ترتسم على صفحات التـاريخ : « الاسلام يجبُ ما قبله » ولولا ذلك لما وجد « خالد » لنفسه مكانة بين المسلمين المجاهدين في سبيل الله بعد كل نـكايته بهم في « أُحد » و« الخندق» و « الحديبية ». ولكن هل كان « خالد » يبحث عن « المكانة » وهو الذي خلف وراءه « عز الدنيا وثراءها مع كل ما انتقل اليه بالوراثة من ولاية – بني مخزوم – التي تخصصت بشؤون الحرب « القبة والأعنة »؟ وذكر « خالد » ما نزل بحق أبيه (وجعلتُ له مالاً ممدوداً. وبنينَ شهوداً. ومهدتُ له تمهيداً . ثم يَطمعُ أنْ أزيدَ كلا إنه كان لآياتنا عنيداً. سأرْهِقـُهُ صَعُوداً. إنه فكَّر وَقدَّرَ . فقـُتِلِ كيف قدَّر . ثم قُتِلَ كيف قدَّر)[2] ووجد كيف أن « الدنيا » لم تفد والده شيئاً عن الآخرة ، فلا غرابـة إن هو ترك الدنيا ومضى بحثـاً عن الآخرة . لقد كان يحمل على كاهله « هموم الدنيا » وهو في سبيله للتحرر من ثقلها وأعبائهـا

---

(١) البداية والنهايـــة . ابن كثير ٢٣٨/٤ - ٢٣٩ وطبقات ابن سعد ٣٩٤/٣ والاصابة ٣٢٣/٦ .

(٢) سورة المدثر ٧٤/ الآية ١٢ - ٢٠ .

ليتفرغ لما فيه خير له ولآخرته ، فلا غرو أن يدق قلب الفارس بعنف وهو يقفز مسابقاً الريح في ظلمة مرعبة يمكن لها أن تدخل الذعر إلى كل قلب ، إلا قلوب فرسان أنار الإيمان قلوبهم ، ووصل الركب « المدينة المنورة » ودخلوا على الرسول ﷺ ، فسلموا عليه « بالنبوة » فرد الرسول بوجه طلق . والتفت الرسول إلى « خالد بن الوليد » ليقول له : « قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير » وقال خالد : « يا رسول الله ، استغفر لي كل ما أوضعت فيه من صد عن سبيل الله » فقال الرسول : « اللهم اغفر لخالد بن الوليد كلما أوضع فيه من صد عن سبيلك » وأقطع الرسول خالداً موضع داره ، فاستقر إلى جانب النبي ، يعيش برعايته ويتمتع بثقته حتى قال : « والله ما كان رسول الله ﷺ يوم أسلمت يعدل بي أحداً من أصحابه فيما يحزبه »[1] وبدأت مرحلة تكون شخصية القائد المسلم « خالد بن الوليد » . وقد يكون من المناسب استقراء بعض ملامح شخصية « خالد » في الجاهلية بهدف معرفة الأرضية التي مهدت لظهور « خالد بن الوليد » .

---

(١) طبقات ابن سعد ٤/٢٥٢ .

١ ـ خالد بن الوليد في الجاهلية

أ ـ الوراثة والبيئة : كان الوليـد بن المغيرة « والد خالد » سيداً من سادات قريش ، لقبـه قومه « بالوليد » ولقبوه « ريحانة قريش » وعند جده « مرة » كان يلتقي نسبه بالرسول ﷺ وأبي بكر الصديق [١] . وكان « الوليد » خصماً عنيداً للاسلام والمسلمين ، وكان شديد النكاية بالرسول ﷺ ، حتى إذا مضى عن الدنيا خلف وراءه الحقد في نفوس أبنائه ، وكان «الوليد» براً بأبنائه محباً لهم ، فخوراً بهم ، حرص على تنشئتهم حياة البداوة ، حيث الفروسية والحرب ، وحيث المهارة في استخدام الاسلحة المختلفة وركوب الخيل وقيادة الرجال . وتابع « خالد بن الوليد » منذ حداثة عهده ما يلحق بالمسلمين من اضطهاد وتعذيب ورغم ذلك فلم يؤثر ذلك على المسلمين إلا زيادة في الصمود ، وإلا زيادة في التمسك بالدين الجديد ، ورأى « خالد » أن معظم رفاقه قد ابتعدوا عنه ، فهاهو « عمر بن الخطاب » وسواه من سادة قريش وعبيدهم قد التفوا كلهم حول

---

(١) أ ـ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن (مرة) بن كعب .

ب ـ خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة ابن (مرة) بن كعب .

ج ـ أبو بكر بن عثمان (ولقبه أبي قحافة) بن عامر بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تيم بن (مرة) بن كعب .

جوامع السيرة ـ ابن حزم ص ٣ .

الرسول ﷺ ، وهاجر « الرسول » إلى « المدينة » وأخذت قاعدة المسلمين في التوسع واكتساب مزيد من القوة . ورغم ابتعاد المسلمين عن « مكة المكرمة » فقد بقيت أخبارهم موضع اهتمام العامة والخاصة ، وكان « خالد » رغم وقوفه في موقع العداء من المسلمين إلا أنه كان لا ريب فخوراً « بمحمد » الذي كان يعتبره كما يقول « واحد منا وقريبنا » . وفي تلك الفترة كانت الأحداث تسير في « مكة » بصورة مضادة فكل نجاح تحرزه « المدينة » يعتبر نكسة بالنسبة « لمكة » وتحول الصراع بين قاعدتين « قاعدة المسلمين » و« قاعدة المشركين » وكان الطريق لحسم الصراع في صالح احدى القاعدتين لا يزال طويلاً وشاقاً .

ب ـ **في موقعة « أحد »** حشد المشركون قواتهم لقتال المسلمين في السنة الثالثة للهجرة وذلك انتقاماً لهزيمتهم المنكرة في موقعة «بدر الكبرى» التي حدثت في السنة السابقة ، وكانت قوات المشركين تضم ٣ آلاف مقاتل ومائتي فارس. وبعد ثلاثة أيام من مغادرة « مكة » وصل المشركون إلى ظاهر المدينة المنورة فأقاموا معسكرهم ، في ظاهر جبل أُحد ، وأخذوا في الاعداد للمعركة الفاصلة وهم يظنون أنهم سيباغتون المسلمين في قاعدتهم ، ولكن أخبار الحملة كانت تصل تباعاً إلى الرسول ﷺ الذي خرج للقاء المشركين (بعد أن استشار أصحابه) ونظم الرسول القائد قواته (التي ضمت ٧٠٠ مقاتل فقط) فوضع ٥٠ رامياً « على تل عينين » لحماية ميسرة المسلمين : وأوصى قائدها

« عبد الله بن جبير » بقوله : « انضحوا الخيل عنا بالنبل ، إن كانت لنا أو علينا » « احموا لنا ظهورنا لا يأتونا من خلفنا ، وارشقوهم بالنبل .. إنا لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم ، اللهم اني أشهدك عليهم »[1] .

كان « خالد بن الوليد » يقود نصف قوة فرسان المشركين — ١٠٠ فارس — بمهمة حماية ميمنة القوات . وقد قام بعدد من الهجمات الفاشلة . ثم قام المسلمون بهجوم حاسم وصلوا به معسكر المشركين . وظنت قوة « عبد الله بن جبير » ان المعركة قد انتهت ، وأرادوا الاسراع إلى الغنائم ، فنهاهم قائدهم عن ذلك ، ولكنهم لم يستمعوا اليه ، فبقي مع عشرة من أصحابه . ورأى « خالد بن الوليد » الفرصة المناسبة فأسرع بفرسانه يلتف من حول « جبل الرماة » وباغت المسلمين فمزق صفوفهم ، وظن المسلمون أن الرسول ﷺ قد استشهد ، وأسرع المقاتلون في اخلاء ميدان المعركة ، وهم أكثرهم بالفرار لولا سماعهم صوت الرسول « هلم إلي ، أنا رسول الله » وكان الموقف خطيراً ، فقد استطاع « خالد بن الوليد » تدمير بقية القوة المتمركزة على « تل عينين » وطوق مؤخرة قوات المسلمين . وأفاد المشركون من هذا الموقف ، فأعادوا تنظيم صفوفهم ، وارتفعت روحهم المعنوية .

انطلق الرسول ﷺ بمن بقي معه من المسلمين ، فاحتل

---

(١) ابن هشام ٦٥/٢ — ٦٦ والسيرة الحلبية ١٧/٢ — ١٨ ومغازي الواقدي ١٧٥ .

موقعاً منيعاً من « الشعب » في جبل أُحد . ونظم قوة للدفاع ، وعندما أدرك المشركون انهم لم يتمكنوا من قتل الرسول ، وانهم لن ينالوا من صمود القاعدة الإسلامية ، قرروا العودة إلى « مكة » متمثلين بما قـاله « أبو سفيان » « لعمر بن الخطاب » وقد تأكد منه أن « محمداً » لا زال على قيد الحياة ، فودعه وهو يقول له: (هذا بيوم بدر ، والحرب سجال، أما أنكم ستجدون في قتلاكم مثلاً [1] والله ما رضيت ولا سخطت ، ولا نهيت ولا أمرت) .

ج - في غزوة الأحزاب « الخندق » : جمع المشركون والوثنيون واليهود صفوفهم في السنة الخامسة للهجرة حتى زادت على عشرة آلاف مقاتل ، وهو أكبر حشد عرفتـه الجزيرة ، وكانت قوة المسلمين لا تزال ضعيفة لا تزيد على ثلاثة آلاف مقاتل ، فقرر الرسول ﷺ ، حفر خندق اعتماداً على نصيحة « سلمان الفارسي » وعندما وصلت قوة الأحزاب إلى المدينـة اصطدمت « بالخندق » ووقفت عاجزة عن عبوره ، فقررت ضرب الحصار على قاعدة المسلمين ، وأثناء ذلك بذلت عدة محاولات للعبور . قاد « خالد بن الوليد » فرسانه في محاولتين ، فشلت الأولى قبل الاقتراب من الخندق وفشلت الثانية عند عبور خالد ووصوله إلى ما وراء الخندق حيث طوقه المسلمون، وعندما

---

(١) يشير بذلك إلى ما قامت به هند بنت عتبة من بقر لبطن حمزة «عم الرسول صلى الله عليه وسلم » واقتطاعها قطعة من كبده ولوكها . وكذلك تقطيع آذان المسلمين والتمثيل بهم بتوجيه من هند بنت عتبة .

وجد أنه مهدد بالفناء انسحب بقواته وبعد حصار استمر ٢٣ يوماً يئس المشركون من المسلمين فقرروا رفع الحصار والعودة إلى قاعدتهم في مكة . وتم تكليف « خالد بن الوليد » و « عمرو ابن العاص » بقيادة المؤخرة ، خوفاً من مطاردة المسلمين .

د ـ **وفي الحديبية** : قاد الرسول ﷺ جموع المسلمين لقضاء « العمرة » في « أواخر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة » وخرج المشركون من مكة « للحرب » ومنع قوات المسلمين من الوصول إلى هدفها . وتم تكليف « خالد بن الوليد » بقيادة قوة من ٣٠٠ فارس بمهمة مجابهة قوات المسلمين ، واصطدمت قوة « خالد » بقوة استطلاع للمسلمين لا تزيد على عشرين فارساً . وعندما علم الرسول ﷺ بحجم قوة « خالد » وموقعها عند « كراع الغميم » كلف قوة الاستطلاع بالمحافظة على التماس مع « خالد » وتجنب الصدام معها وقام بحركة التفاف واسعة ، وعندما شاهد « خالد » الغبار وهو يغطي الأفق عرف أن قوة المسلمين الرئيسية قد تجاوزته كثيراً وأصبح في موقع العزلة . فقرر الانسحاب بقوته والعودة إلى « مكة » وتم بعد ذلك « صلح الحديبية » ولم تقع حرب أو اشتباك [١] .

ثلاثة مواقع وقف فيها « خالد » ضد « جند الله » لم ينل منهم شيئاً رغم انتصاره في « أحد » وكان كل عدوان جديد

---

(١) قصة الحديبية وشروط صلحها في « الكامل في التاريخ » ابن الأثير ٢/١٣٥ - ١٤٠ .

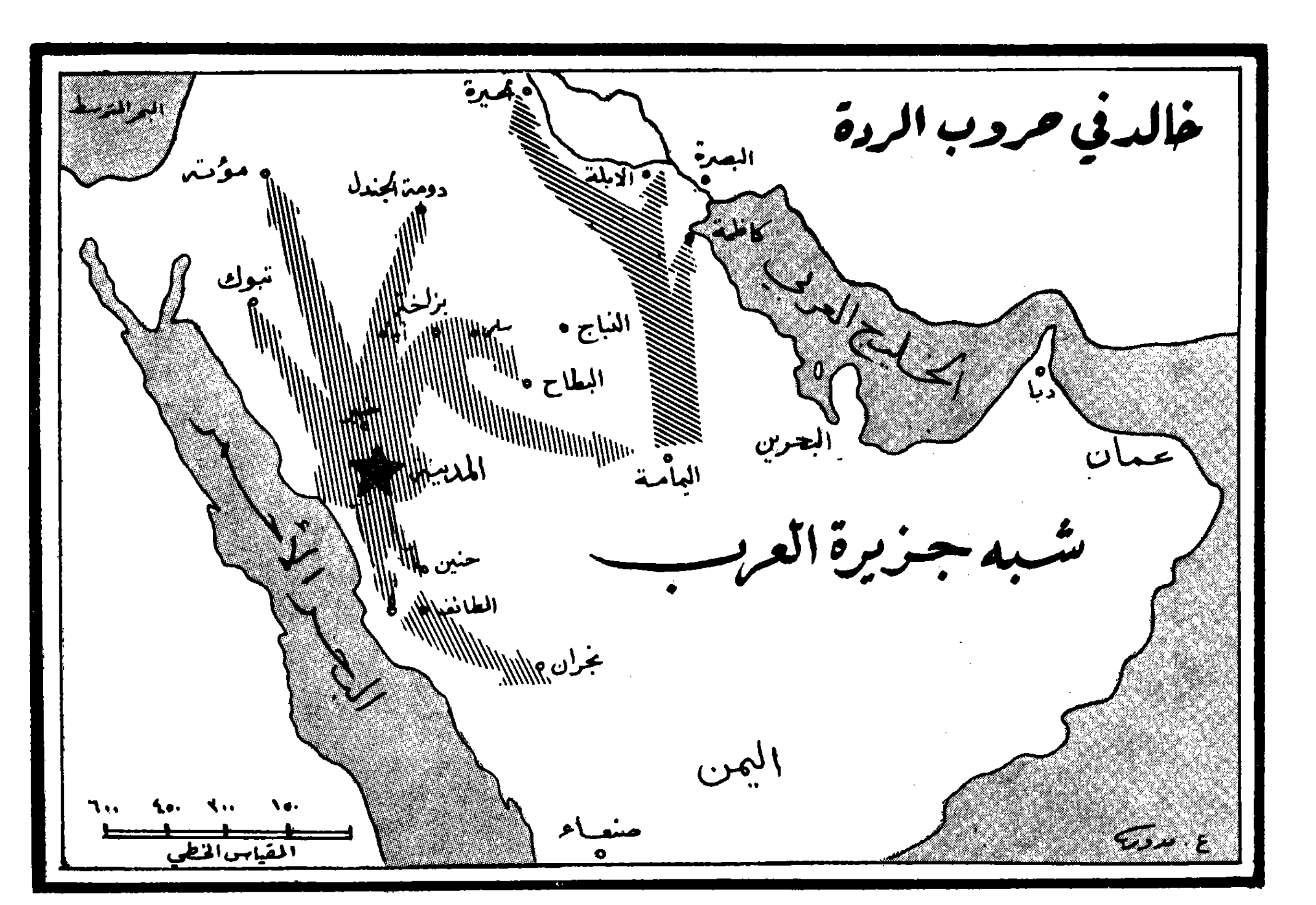
على المسلمين يزيدهم قوة وعناداً وتصميماً في الوقت الذي كانت فيه قوة المشركين تتزايد ضعفاً وتمزقاً وتفتتاً . ولم تكن هـذه الظاهرة لتخفى على « خالد » ولكن الأهم من ذلك هو « تلك الروح التي تميز بها المسلمون » وذكر « خالد » قصة أسر أخيه « الوليد » في موقعة بدر الكبرى ، والتي لم يتمكن هو من الاشتراك فيها بسبب غيابه في الحجاز ، ثم كيف توجه بعد ذلك مع أخيه « هشام » لفداء « الوليد » وكيف طلب المسلمون مبلغ ٤ آلاف درهم فداء له ، وعندما أراد « هشام » المساومة على هـذا المبلغ الكبير ، انتهره « خالد » ودفع المبلغ وحرر « أخاه » وانطلق « خالد » بأخويه إلى « زول حليفة » على بضعة أميـــال عن عن المدينة ، حيث نصبوا خيمة لقضاء ليلهم ، وفي الليل هرب « الوليد » وعاد إلى المدينة وأشهر إسلامه ، وتخلى عن أخويـه اللذين جاءا لافتدائه .

لقد رفض الوليـد « اشهار اسلامه » وهو في ربقة الأسر حتى لا يظهر اسلامـه وهو في موقع الضعف ، ولكنـه عرف الاسلام عن قرب ، وعرف المسلمين وفضائل مجتمعهم الجديد ، فاغتنم فرصة « تحرره » ليشهر اسلامه .

فكر « خـــالد » في ذلك كله ، وأخذ في انتظار الفرصة المناسبة ، وجاءت رسالة « الوليد » فلمست شغاف قلبه ، وكان قد مضى على « صلح الحديبية » شهران لا أكثر ، فأخذ « خالد» في الدعوة للاسلام ، ودخل في حـوار مع رفاقه في الجاهلية ،

وبلغ ذلك «أبي سفيان» فغضب لذلك واستدعى اليه «خالداً» في محاولة لثنيه عن عزمه، وهدده بقسوة، وهنا تدخل عكرمة لكبح غضب «أبي سفيان» وقال له: (**اهدأ .. فان غضبك سيقودني أيضاً للانضمام إلى «محمد» فخالد حر في اختيار الدين الذي يرغبه**). وعرف «خالد» أن امثال هؤلاء قد غشيتهم غاشية فلا هم يبصرون بقلوبهم ولا هم ينظرون بعيونهم. لقد أسدل ستار بينهم وبين الحق، فقرر «خالد» تركهم وراءه. ومضى إلى حيث نور الحق. وفرح المسلمون «بخالد» وفرح هو بلقائهم، إنهم اخوانه وأهله وعشيرته. لم يكن «خالد» في يوم من الأيام يهتم كثيراً «بالعقائد والديانات» ولكنه وجد في الاسلام «وجوده» فاندفع - كالظمآن - ينهل من هذا المورد. وكان «خالد» يتردد باستمرار للتعلم على يدي رسول الله ﷺ، وليستدرك ما فاته.

مضت أشهر ثلاثة على اسلام «خالد» وهو بجوار «النبي» ﷺ، وكانت المدينة تضج بالحياة، فقد استقر فيها عدد كبير من المسلمين، وكانت أفواج المسلمين ودعاتهم في حركة دائمة، فقد كان «حجم العمل» أكبر من «حجم المسلمين» رغم زيادة قوتهم العددية، وكانت الوفود تتدفق باستمرار إلى «المدينة» لتعود منها وقد ربطت مصيرها بمصير المسلمين في قاعدتهم ومع قدوم هذه الوفود وإيابها، كانت هناك حركة مبعوثي المسلمين مستمرة ومتعاظمة. وفي هذا الوقت قرر الرسول ﷺ ارسال وفد إلى أمير بصرى الغساني يدعوه للاسلام.



خالد في حروب الردة
البحر المتوسط
الحيرة
البصرة
الابلة
كاظمة
مؤتة
دومة الجندل
تبوك
بزاخة
النباج
البطاح
الخليج العربي
دبا
عمان
البحرين
اليمامة
المدينة
شبه جزيرة العرب
حنين
الطائف
نجران
اليمن
صنعاء
البحر الأحمر
١٥٠ ٣٠٠ ٤٥٠ ٦٠٠
المقياس الخطي

٢ ـ خالد بن الوليد في الاسلام

١ ـ **غزوة مؤتـــة** : غادرت قوة من المسلمين لا تزيد على ثلاثة آلاف مقاتل قاعدة المسلمين في المدينـة المنورة ، متوجهة نحو الشمال حيث بلاد الشام . وكانت هذه القوة بقيادة « زيـد ابن حارثة » بمهمة الانتقام لمقتل الوفـد الذي كان الرسول ﷺ قـــد بعثه إلى حلفاء الروم « ذات الطلح » ومصرع الرسول « الحارث بن عمير الازدي » الذي توجه إلى « هرقل » يـدعوه للاسلام فتصدى له « عمرو بن شرحبيل الغساني » على الطريق وقتله . وكان مــن الطبيعي أن يكون الرد هو تجريـد حملة من المسلمين الذين أوصاهم الرسول وهو يطلقهم (**إن أصيب زيـد فجعفر بن أبي طالب على الناس ، فان أصيب جعفر فعبد الله ابن رواحة على الناس**)[١] ووصلت قــوة مــن المسلمين إلى « معان »[٢] وأقامت فيها ليلتين ، وتوفرت المعلومات عن حشد كبير لقوات الروم في « مآب » ومعهم أنصارهم من القبــائل المستعربة من قبــائل لخم وجذام والقين وبهراء وبلى ، وذلك

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/٣٢٢ والطبري ٣/١٠٧ والكامل لابن الأثـير ٢/٢٣٤ .

(٢) مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي « البلقاء » معجم البلدان ٨/٩٣ والبلقاء كورة من أعمال « دمشق » بين الشام ووادي القرى ، قصبتها « عمان » وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة معجم البلدان ٢/٢٧٧ .

بقيادة « هرقل »ملك الروم[1] وهناك بعض الاختلاف فيتقدير حجم قوات الروم وأنصارهم إلا انه ليس هناك اختلاف بأن حجم هذه القوات كان يزيد بمعدل لا يقل عن ٥ – ١٠ أضعاف عن قوة المسلمين واجتمع القـــادة لمناقشة الموقف ، وتقرر خوض المعركة في « مؤتة » بصرف النظر عن حجم القوى ، وعملاً بنصيحة عبد الله بن رواحــة الذي قال : (**يا قوم : والله ان التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون ، الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة كثرة ، ولا نقاتلهم إلا بهـــذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فانما هي إحدى الحسنيين ، إما ظهور – نصر – وإما شهادة**) ودارت معركة حاسمة وقصيرة قتل فيها قادة المسلمين الثلاثة على التتابع ، وتمزقت قوات المسلمين ، فتنادى المقاتلون وقرروا انتخاب « خالد بن الوليد » لقيادتهم .

لم يكن « خالد » يبحث عن القيادة ، فقد مضى مجاهداً في سبيل الله ، جنديــاً في صف المقاتلين ، وتحت قيادة رجال لهم الفضل في سبقه إلى الإســلام . ولم يكن يشعر بحرج وهو الذي كان مقدماً في قومه ، عزيزاً في عشيرتــه ، قائداً في فرسانه ، ولكن هـــا هي الفرصة تسنح له وتتقدم منه في موقف شديد الصعوبة . فقوات المسلمين ممزقــة وهي أمام خصم يتفوق عليها

---

(١) في الطبري « غزوة مؤتة » وابن الأثير ٢/١٥٩ ان قوة الروم بلغت ١٠٠ الف ، وقوات أنصارهم ١٠٠ الف أيضاً . وذكر العقيد ياسين سويـد – خالد ص ١٤٤ – استناداً للعقاد – عبقرية خـالد /٥١/ ان قوة الروم ١٥ الف .

تفوقاً حاسماً . ولكن رغم ذلك ، فقد أخذ « خالد » على عاتقه مسؤولية إخراج قوة المسلمين من مأزق الحرب الذي يجابهونه ، وانقاذ المسلمين من الفناء الذي كان ينتظرهم .

اعاد « خالد » تنظيم قواته بسرعة ، وانطلق بهجوم جبهي ، وكان اندفاعه وحماسته كافيتان لاثارة حمية القتال والتحريض على الجهاد . واندفع المسلمون في قتالهم المرير حتى غربت الشمس وأفاد « خالد » من هـــذه الفرصة ، فعمل على إعادة تنظيم قواته « فاستبدل الميمنة بالميسرة ومقدمة القلب بالمؤخرة ، وفي أثناء عملية الاستبدال ، اصطنع ضجة صاخبة وجلبة قوية ، ثم حمل على العدو عند الفجر بهجمات سريعة متتالية وقوية ، ليدخل في روعه ان امدادات كثيرة وصلت إلى المسلمين » وقد قامت بهذه الهجمات قوة الساقـة « المؤخرة » واستطاع خالد بذلك ضمان انسحاب الكتلة الرئيسية من قواته . ثم سحب المؤخرة ، ولم يجد الروم الجرأة لمطاردة « خالد » اعتقاداً منهم بزيادة حجم قوتـــه ووصول امدادات اليه . وخسر المسلمون ثلاثة عشر مجاهداً ، وكانت خسارة الروم وحلفائهم أكبر بكثير . فقد ذكر «خالد» ما فعله وحده فقال (لقد انقطع في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما بقي إلا صحيفة يمانية) .

جمع الرسول ﷺ المسلمين ، وأخبرهم « قصة المعركة » وذلك عندمـــا كان جيش « خالد » لا يزال يضرب في الصحراء – في الطريق إلى المدينة – إلى أن قال لهم : ثم أخذ الراية سيف من

سيوف الله « خالد بن الوليد » فعـــاد بالناس ، فمن يومئذ سمي « خالد » سيف الله .

وصل « خالد » وجيشه إلى « المدينة » فاستقبلهم الرسول والمسلمون ، وحمل الرسول ﷺ « عبـــد الله بن جعفر » بين يديه ، في حين جعل الناس يحثون التراب على الجيش ويقولون : يا فرار في سبيل الله . فيقـول رسول الله ﷺ : ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله .

٢ ـ «**خالد» في فتح مكة**: نقض المشركون «صلح الحديبية» ولما يمض على « غزوة مؤتة » أكثر من شهرين – من السنة الثامنة للهجرة أيضاً – وحانت الفرصة التي طالما انتظرها الرسول ﷺ والمسلمون . فتم استنفار المسلمين ، ونظمت قوتهـــم في أربـع مجموعـــات لدخول مكة « من أبوابها المتفرقة » وتولى « خالد ابن الوليد » قيادة الميمنة بمهمة الدخول من أسفل « مكة » (منطقة الليط والخندمة) إلى الشمال من « مكة المكرمـة » وعهد الرسول ﷺ إلى قادته « امرائه » (ألا يقتلوا أحداً إلا من قاتلهم) .

كان جيش «خالد » يضم قبائل «أسلم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من العرب » وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتسلم فيها « خالد » دوراً قيادياً تحت راية الاسلام . فمضى « خالد » إلى الاتجاه المحدد له ، وكان عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أُمية وسهيل بن عمرو ، قـد جمعوا قوات من المشركين في الخندمة ،

ليقاتلوا المسلمين ، ومعهم الأحابيش وبنو بكر وبنو الحرث بن عبد مناة ، فلقيهم « خالد » فقاتلهم ، وقتل من المسلمين ثلاثة وقتل من المشركين ثلاثة عشر رجلاً ، ثم انهزم المشركون[1] ودخل المسلمون « مكة » دون قتال ، باستثناء تلك المعركة القصيرة والحاسمة والتي خاضها « خالد بن الوليد » . ثم تجمعت قوات المسلمين ، وأخذت في الطواف حول الكعبة وهي تردد : (الله أكبر ! لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ...) .

كانت « العزى » أعظم الأصنام عند قريش وبني كنانة ، وكان سدنتها وحجابها بنو شيبان من سليم حلفاء بني هاشم ، وقد رافق عملية « فتح مكة » ازالة الأصنام ، ولم تمض أيام خمسة على الاقامة في مكة حتى بعث الرسول ﷺ ثلاثين فارساً بقيادة « خالد بن الوليد » بمهمة « هدم العزى » فقام « خالد »

---

(١) كان مع « عكرمة » رجل يقال له « حماس بن قيس » وكان قد قال لامرأته : لآتينك بخادم من أصحاب محمد ، فلما عاد اليها منهزماً ، قال لها : أغلقي علي بابي ، قالت له تستهزىء به : أين الخادم ؟ قال :

إنك لو شهدت يوم الخندمة ... إذ فر صفوان وفر عكرمة

وأبو يزيد قائم كالموتمة ... واستقبلتهم بالسيوف المسلمة

يقطعن كل ساعد وجمجمة ... ضرباً فلا تسمع إلا غمغمة

لهم نهيت خلفنا وهمهمة ... لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

ابن الأثير - الكامل - ٢/١٦٧ - ١٦٨ .

بتنفيذ المهمة وعاد إلى مقر النبي ﷺ [١] .

ما كاد «خالد» يصل من مهمته حتى كان الرسول محمد ﷺ قد جهز قوة من ثلاثمائة وخمسين مقاتلاً وكلف « خالداً » بقيادتهم للقيام بمهمة « دعوة بني جذيمة » إلى الاسلام وذلك في جملة السرايا التي تم توجيهها بعد الفتح – فيما حول مكة – فكان ممن بعث « خالد بن الوليد » بعثه داعياً ولم يبعثه مقاتلاً فنزل على « الغميصاء » وهي ماء من مياه « جذيمة » فوجد أن « جذيمة » قد أخذوا أسلحتهم واستعدوا للحرب . فدعاهم إلى الاسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، وجعلوا يقولون صبأنا، صبأنا. فقال لهم خالد : ضعوا السلاح فان الناس قد أسلموا فوضعوا السلاح ، فأمر خالد بهم فكتفوا ثم عرضهم على السيف ، فقتل منهم من قتل ، فلما انتهى الخبر إلى النبي ﷺ رفع يديه إلى السماء ثم قال : (**اللهم اني أبرأ اليك مما صنع خالد**) ثم أرسل « علياً » ومعه مال ، وأمره أن ينظر في أمرهم ، فودى لهم الدماء والأموال ... وبقي معه من المال فضلة فقال لهم علي : هل بقي لكم مال أو دم لم يود ؟ قالوا : لا . قال فاني أعطيكم هذه البقية احتياطاً لرسول الله ﷺ ففعل . ثم رجع إلى رسول الله ، فأخبره فقال : أصبت وأحسنت [٢] .

---

(١) أقوال « خالد » وأقوال « السادن » عند هدم « العزى » مثبتة من « من أقوال خالد » في بداية هذا الكتاب .

(٢) هناك روايات متناقضة يدحض بعضها بعضاً في موضوع « الأسلوب الذي اتبعه خالدفي حربه » وتزعم بعض المصادر ان سبباقدام «خالد» ←

٣ - **غزوة « هوازن » « بحنين »** : لما سمعت « هوازن » بما فتح الله على رسوله من « مكــة » جمعها « مالك بن عوف النصري » وكانوا مشفقين مــن أن يغزوهم رسول الله ﷺ بعد فتح « مكة » وقالوا : لا مانع له من غزونا ، والرأي أن نغزوه قبل أن يغزونا . ولمـا بلغ ذلك الرسول ﷺ أجمع المسير اليهم بقوة ١٢ الف مقاتل ، وعجب المسلمون لكثرة عددهم حتى قال قائلهم : (**لن نغلب اليوم من قلة**)[١] وتقدم « خالد » ومعه مائة فارس من « بني سليم » للعمل كمقدمة ، وعندما وصل إلى « وادي حنين » أسرع خالد في تقدمه دون إجراء استطلاع دقيق بهدف الوصول إلى « أوطاس » حيث قاعدة « هوازن » . وقال أحد المسلمين «جابر» وهو يصف ما حدث : (لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في وادٍ أجوف حطوط انما ننحدر انحداراً في عماية الصبح : وكان القوم – من هوازن – قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شعابه ومضايقه ، قد أجمعوا وتهيؤوا

← على إبادة «بني جذيمة» هو انتقامه لثأرات الجاهلية حيث أصابت «جذيمة» في الجاهلية عوف بن عوف أبا عبد الرحمن بن عوف والفاكه بن المغيرة عم « خالد » ويمكن دحض هذه المزاعم بما هو معروف عن « خالد » من تفضيله دائماً « لحريـــة العمل العسكري » واتباع اسلوب « حسم الصراع المسلح » بصورة جذرية .

(١) وفيها نزل قوله تعالى : « ويوم حنين إذ أعجبتــكم كثرتــكم فلم تغن عنكم شيئاً » .

و« حنين » هو واد يبعد ١١ ميلا شرق وشمال شرق مكة . ويمتد مسافة ٧ أميال . وهو واد ضيق ينفرج في قسم منه حتى يبلغ عرضه ميلين تقريباً .

وأعدوا فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدت علينا شدة رجل واحد، فانهزم الناس أجمعون لا يلوي أحد على أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: أيها الناس هلموا إلي. أنا رسول الله. أنا محمد بن عبد الله، قالها ثلاثاً) وسقط « خالد » جريحاً[1] ولم يبق حول الرسول سوى بعض الرجال وأهل بيتـه. وارتفع صوت العبـاس الجهوري وهو ينادي: (يا معشر الأنصار. يا أصحاب البيعة يوم الحديبية) وترددت في الوادي صيحات (لبيك لبيك) وبدأ المسلمون في التجمع، ونظمهم الرسول ﷺ، وانطلق بهم وهو يرتجز

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

واستمر القتال حتى الضحى، وكانت قوات المسلمين تتزايد باستمرار وهي تتجمع (بعد أن مزقتها المباغتة) ووجد الرسول أن الموقف قد بدأ في التحول لمصلحة المسلمين فقال (**الآن حمي الوطيس**) وهو أول من قالها، وعندما اكتمل جمع المسلمين قاموا بهجوم عـام وانتزعوا النصر الذي فقدوه في بدايـة المعركة.

دمر النبي قوات « هوازن » في وادي حنين، وطردها من

---

(١) تعتبر هذه الحادثة من أحداث الحروب المثـيرة. والتي استطاع فيها جيش كامل أن ينصب كميناً لجيش كامل. وكان العامل الأساسي للنجاح هو « عدم نجاح قوة الاستطلاع في تنفيذ واجباتها مما مهـد لحدوث المباغتة على مستوى العمليات ».

« أوطاس » ولكنه لم يتوقف عند هذه المرحلة ، فقرر متابعة التقدم إلى « الطائف » بهدف عدم السماح « لهوازن » باعادة تنظيم قواتها واحتمل « خالد » جراحه ، وعاد لقيادة المقدمة على رأس « بني سليم » .

في الطريق إلى « الطائف » قاتل « خالد » فلول المشركين ، وكان بين قتلى المشركين امرأة ، وشاهدها النبي وسأل « من قتلها ؟ » فقالوا : « خالد بن الوليد » فقال لبعض من معه : « أدرك خالداً وقل له: ان رسول الله ينهاك أن تقتل امرأة أو وليداً أو عسيفاً ـ أجيراً ـ »واستمر حصار الطائف نيفاًوعشرين يوماً ، ثم رفع المسلمون الحصار عنها ، ورجعوا إلى المدينة .

٤ ـ « خالد » مع « بني المصطلق » : بلغ النبي أن « بني المصطلق » قد ارتدوا عن الاسلام . فبعث « خالداً » وأمره أن يتثبت ولا يعجل ، وانطلق « خالد » حتى أتاهم ليلاً . وبعث عيونه « جواسيسه » فأخبروه بأن القوم متمسكون بالاسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم « خالد » فرأى ما يعجبه ، فرجع إلى النبي ﷺ وأخبره الخبر[١] .

٥ ـ في دومة الجندل[٢] : علم النبي ﷺ أن « هرقل »ملك

---

(١) وفيها نزل قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ، إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) الحجرات ٦/٤٩.

(٢) دومة الجندل : حصن على سبع مراحل من دمشق تقع بين دمشق والمدينة ـ معجم البلدان ١٠٦/٤ (وتسمى اليوم الجوف) تبعد قليلاً عن تبوك .

الروم ومن عنده من متنصرة العرب قـــد عزموا على قصده ، فتجهز هو والمسلمون وساروا إلى الروم ، وكان الحر شديـداً والبلاد مجدبة والناس في عسرة . فكان ذلك الجيش يسمى « جيش العسرة » وكان أكبر جيش حشده المسلمون[1] وقاد النبي هذا الجيش بنفسه حتى وصل « تبوك » ومنها أخذ في ارسال السرايا لاخضاع المناطق المجاورة مثل « ام رشراش » ـ قرب العقبة ـ وجربة وازرع ومكنة وجميعها تقع على امتداد خليج العقبة . ثم أرسل « خالد بن الوليد » إلى « أكيدر بن عبد الملك » صاحب «دومة الجندل» وكان نصرانياً من « كندة» فقال لخالد : إنك تجده يصيد البقر . فخرج « خالد بن الوليد » حتى إذا كان من حصنه على منظر العين ـ نصب كميناً ـ ولم تمض سوى فترة حتى خرج « أكيدر » ومعه أهل بيته يطلب البقر . فتلقتهم خيل رسول الله ﷺ وأخذته ، وقتلوا أخاه حساناً.وقدم خالد « بأكيدر » على الرسول فحقن دمه وصالحه على الجزية ، ثم خلى سبيله . وبعث النبي ﷺ « خالداً » لهدم « ودّ » في « دومة الجندل » فحالت بنو « عبد ود » وغيرهم بينه وبين هدمه ، فقاتلهم « خالد » وبعد دحرهم هدمه وكسره جذاذاً[2] ورجع المسلمون من غزاتهم فوصلوا المدينة بعد أن

---

(١) الكامل ـ ابن الأثير ١٨٩/٢ .

(٢) الصنم « ود »هو تمثال رجل ضخم الجسم عبده بنو كلب بن وبرة من قضاعة « بدومة الجندل » سيرة ابن هشام ٨٣/١ .

أقاموا في « تبوك » بضع عشرة ليلة . وكان ذلك في نهاية السنة التاسعة للهجرة (٦٣٠م) .

٦ - **في نجران :** أرسل النبي حملة عسكرية تضم أربعمائة مقاتل من المسلمين بقيادة « خالد بن الوليد » بمهمة دعوة قبيلة بني « الحارث بن كعب » في « نجران » الواقعة إلى الشمال من اليمن (وذلك في ربيع الثاني ١٠ هـ الموافق تموز - يوليو - ٦٣١ م) وأوصاه بقوله : (فان استجابوا فاقبل منهم وان لم يفعلوا فقاتلهم) ووصل « خالد » إلى « نجران » واتصل مع « بني الحارث بن كعب » ودعاهم إلى اعتناق الاسلام ، فقبلوا دعوته ، ولم ترق الدماء وأرسل « خالد » إلى الرسول ﷺ يعلمه بنجاح مهمته ، وأجابه الرسول يهنئه [1] وأقام « خالد » مع

---

(١) كتب « خالد » إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يعلمه بنجاح مهمته :

بسم الله الرحمن الرحيم

لمحمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالد بن الوليد . السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته . فاني أحمد الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد : يا رسول الله صلى الله عليك ، فانك بعثتني إلى بني الحارث بن كعب وأمرتني إذا أتيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام وأن أدعوهم إلى الاسلام فان اسلموا قبلت منهم ، وعلمتهم معالم الاسلام ، وكتاب الله وسنة نبيه ، وان لم يسلموا قاتلتهم . واني قدمت عليهم ، فدعوتهم إلى الاسلام ثلاثة ايام كما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعثت فيهم ركباناً - يا بني الحارث ! أسلموا تسلموا ، فأسلموا ولم يقاتلوا . وأنا مقيم بين أظهرهم ، وآمرهم بما أمرهم الله به، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه ، واعلمهم معالم الاسلام وسنة النبي صلى الله عليه وسلم حتى يكتب إلي رسول الله . والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته .

←

القبيلة عدة أشهر وهو يعلمهم « قواعد الاسلام وتعاليمه » ثم عاد مع وفد منهم إلى المدينة .

٧ ـ خالد في « اليمن » : بعث النبي ﷺ ـ في السنة العاشرة للهجرة ـ علياً في جند ، وبعث خالداً في جند آخر ، وقال : (ان التقيتما فالأمير علي بن أبي طالب) . وكانت هذه آخر مهمة اضطلع بها « خالد » في حياة الرسول ﷺ .

ثلاثة أعوام تقريباً قضاها « خالد » في العمل تحت راية الاسلام (في زمن الرسول) : مقابل عشرة أعوام ونيف عمل فيها « خالد » ضد الاسلام ، ولكن خبرته القتالية وخبرته في القيادة لم تساعدانه على خوض أكثر من معركة حاسمة واحدة هي « معركة أُحد » في حين خاض تحت راية الاسلام معارك كثيرة ، بعضها تحت قيادة النبي ﷺ مباشرة ، وبعضها الآخر بصورة مستقلة . وقد يكون من السابق لأوانه تقويم أعمال « خالد » وكفاءته ، ولكن بالامكان استخلاص بعض الملامح

← وأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم .

من « محمد النبي » رسول الله إلى « خالد بن الوليد » سلام عليك . فاني احمد الله اليك الذي لا إله إلا هو . اما بعد ، فان كتابك جاءني مع رسلك تخبر أن « بني الحارث » قد اسلموا قبل ان تقاتلهم ، واجابوا إلى ما دعوتهم اليه من الاسلام وشهادة ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له: وان محمداً عبده ورسوله ، وان قد هداهم بهداه ، فبشرهم وانذرهم ، وأقبل وليقبل معك وفدهم ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

تاريخ الطبري ٣/١٢٦ — ١٢٧ .

الأولية التي اكتسبها « خالد » من خلال جهاده تحت رايـــة الاسلام ، ومنها :

١ ـ لقد برهن « خالد » على كفاءته العالية عندما تم تكليفه بممارسة أعمال قيادية مستقلة .

٢ ـ لقد تعلم « خالد » قيـــادة قوات كبيرة الحجم تختلف تماماً عن تلك التي كان يقودها في جاهليته .

٣ ـ لقد قاد « خالد » معركة ناجحة في « أحـــد » ولكن الرسول ﷺ انتقص من قيمة ذلك النجاح وأحبطه ، كما قـاد « خالد » معركة فاشلة في « حنين » وعمل الرسول أيضاً على تحويل الفشل إلى نصر كامل . ولعل هـــذه الدروس هي من أفضل ما تعلمه « خـالد » إذ أنه أصبح أكثر قدرة للتمييز بين « غاية السلم » التي ينشدها الاسلام ويعمل لها . وبـين « هدف الحرب » الذي يتم إنجازه في حدود مقننة على مسرح الأعمال القتالية .

٣ ـ خالد بن الوليد « وحروب الردة »

(ارتدت العرب إما عامة وإما خاصة في كل قبيلة ، ونجم النفـــاق ، واشرأبت اليهود والنصارى ، والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية ، لفقـــد نبيهم ﷺ وقلتهم وكثرة عدوهم)[١] .

(وتضرمت الأرض ناراً وارتدت كل قبيلة عامة أو خاصة إلا قريشاً وثقيفاً ، واستغلظ أمر مسيلمة وطليحة ، واجتمع على طليحة عوام « طيء وأسد » وارتدت « غطفان » تبعاً « لعيينة بن حصن »)[٢] .

جابه الخليفة الأول هذا الموقف فشكل أحد عشر جيشاً ، وقطع البعوث وعقد الألوية ، (عقد لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد ، فاذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة ـ بالبطاح ـ إن أقـــام له ، ولعكرمة بن أبي جهل وأمره بمسيلمة) ووجه الخليفة أبو بكر رضي الله عنه كتباً إلى قـــادة الردة ينصحهم ويحذرهم، كما زود قادة الجيوش بكتب يحدد لهم فيها واجباتهم[٣]

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٢٢٥ .

(٢) الكامل - ابن الأثير ٢/٢٣١ .

(٣) رسائل الخليفة ، واسماء قادة الجيوش الاسلاميـــة لحروب الردة في الطبري ٣/٢٤٩ - ٢٥٢ وابن الاثير ٢/٢٣٤ وهؤلاء القادة هم : خالد بن الوليد وعكرمة بن ابي جهـــل والمهاجر بن ابي امية وشرحبيل بن حسنة وخالد بن سعيد وحذيفة بن محض وعرفجة بن هرثمـــة وسويد بن مقرن والعلاء بن الحضرمي وطريفة بن حاجز وعمرو بن العاص .

ووجه الخليفة ابوبكر « عدي بن حاتم الطائي » ليسبق «خالداً» بمهمة تخذيل القبائل ومساعدة خالد على تنفيذ مهمته ، ثم أمر « أبو بكر » القائد « خالداً » : (أن يبدأ « بطيء » على الأكناف ، ثم يتوجه بعد ذلك إلى « بزاخة » [1] ثم يثلث « بالبطاح » ولا « ينتقل » إذا فرغ من قوم حتى يأمره بذلك . وقام« أبو بكر »بتظاهرة عسكرية ،فأعلن أنه خارج إلى«خيبر» حتى يلاقي خالد باكناف سلمى - فخرج « خالد » وقام بحركة التفاف مبتعداً عن « البزاخة » وجنح إلى « أجأ » وأظهر انه خارج إلى « خيبر » للقاء « أبو بكر » فقعد ذلك « طيئاً » وبطأهم عن « طليحة » . وقدم « عدي بن حاتم » على قومه « طيء » فدعاهم فقالوا :لا نبايع « أبا الفيصل » أبداً ! فقال: لقد أتاكم قوم ليبيحن حريمكم ، ولتُكَنُّنَّهُ بالفحل الأكبر ، فشأنكم به . فقالوا له : فاستقبل الجيش فنهنه - أبعده - عنا حتى نستخرج من لحق بالبزاخة منا ، فإنا إن خالفنا « طليحة » وهم في يديه قتلهم أو ارتهنهم فاستقبل « عدي » خالداً عند « السنح » [2] فقال . يا خالد ! أمسك عني ثلاثاً يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك ، وذلك خير من أن تعجلهم

---

(١) بزاخة : ماء بطيء بأرض نجد . وقيل ماء اسد . معجم البلدان ١٦١/٢ .

(٢) السنح: موضع بنجد قرب جبل « طيء » نزله خالد في حرب الردة فجاءه « عدي بن حاتم » باسلام طيء وحسن طاعتهم . معجم البلدان ١٤٩/٥ .

إلى النار . وتشاغل بهم ، ففعل . فعــاد « عدي » اليهم وقد أرسلوا أخوانهم فأتوهم من بزاخة كالمددلهم ولولا ذلك لم يتركوا، فعاد «عدي»باسلامهم إلى «خالد»وارتحل «خالد» نحو «الأنسر» يريد « جديلة » فقال له « عدي : إن « طيئاً » كالطائر ، وإن « جديلة » أحد جناحي طيء ، فأجلني أيامــاً لعل الله ينتقذ « جديلة » كما انتقذ « الغوث » ففعل ، فأتاهم عدي ، فلم يزل بهم حتى بايعوه ، فجاءه باسلامهم، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب فكان « عدي » خير مولود في أرض طيء وأعظمه عليهم بركة . وأرسل « خالــد بن الوليد » عكاشة بن محصن وثابت ابن أقرم الأنصاري طليعة لقوات المسلمين ، فلقيها « حبال » أخو « طليحة »فقتلاه، فبلغ خبره « طليحة »فخرج هو وأخوه « سلمة » فقتل طليحة« عكاشة » وقتل أخوه « ثابتاً » ورجعا، وأقبل « خالد » بالناس ، فرأوا « عكاشة وثابتاً »قتيلين ،فجزع لذلك المسلمون وانصرف بهم«خالد» نحو «طيء»، فقالت له طيء نحن نكفيك « قيساً » فان « بني أسد » حلفاؤنا ، فقال: قاتلوا أي الطائفتين شئتم ، فقال « عدي بن حاتم » : لو نزل هذا على الذين هم أسرتي الأدنى فالأدنى لجاهدتهم عليه، والله لا أمتنع عن جهاد«بني أسد» لحلفهم فقال له« خالد »: إن جهاد الفريقين جهاد. لا تخالف رأي أصحابك وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط . ثم تعبى لقتالهم ، ثم سار حتى التقيا على « بزاخة » و « بنو عامر » قريباً يتربصون على من تكون الدائرة، فاقتتل الناس على بزاخة ، وكان « عيينة بن حصن » مع « طليحة » في

سبعمائة من بني « فزارة » فقاتلوا قتالاً شديداً و « طليحة » متلفف في كسائه يتنبأ لهم، فلما اشتدت الحرب ، كرّ « عيينة » على « طليحة » وقال له : (هل جاءك « جبريل » بعد ؟) قال لا. فرجع فقاتل ، ثم كرّ على « طليحة » فقال له : (لا أبالك! أجاءك جبريل ؟) قال : لا . فقال « عيينة » : حتى متى ؟ قد والله بلغ منا ثم رجع فقاتل قتالاً شديداً. ثم كرّ على «طليحة» فقال : (هل جاءك « جبريل ؟ قال : نعم . قال : فماذا قال لك ؟ قال : قال لي : إن لك رحى كرحاه ، وحديثاً لا تنساه) فقال « عيينة » : (قد علم الله انه سيكون حديث لا تنساه ، انصرفوا يا بني فزارة فانه كذاب) فانصرفوا وانهزم الناس . وكان « طليحة » قد أعد فرسه وراحلته لامرأته « النوار » فلما غشوه ركب فرسه وحمل امرأته ثم نجا بها وقال : يا معشر « فزارة » من استطاع أن يفعل هكذا وينجو بامرأته فليفعل . ثم انهزم[1]. ولما فرغ « خالد » من أمر بني « عامر » وبيعتهم

---

(١) طليحة بن خويلد الأسدي : قدم مع وفد « أسد بن خزيمة » على النبي صلى الله عليه وسلم في السنة التاسعة للهجرة : فأسلم . فلما رجع ورجعوا تنبأ « طليحة » في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، فأرسل إليه — النبي « ضرار بن الأزور » ليقاتله . فلما توفي النبي صلى الله عليه وسلم : عظم أمر طليحة بعد أن أنضم إليه الحليفان « أسد وغطفان » وكان يزعم أنه يأتيه « جبريل » بالوحي . ومن أقوله : (والحمام واليمام ، والصرد الصوام ، قد صمن قلبكم بأعوام : ليبلغن ملكنا العراق والشام) ، وقال « طليحة » يوم « البزاخة (أمرت ان تصنعوا رحاً ذات عرى، يرمي الله بها من رمى ، ←

على ما بايعهم عليه ، أوثق « عيينة » و« قرة بن هبيرة » فبعث بهما إلى « أبي بكر » فلما قدما على المدينة (عرض « عيينة بن حصن » مجموعـــة يداه إلى عنقه بحبل ، ينخسه غلمان المدينة بالجريد – قضبان النخــل – ويقولون أي عـدو الله ، أكفرت بعد إيمانك ! فيقول : والله مـا كنت آمنت بالله قط . فتجاوز عنه أبو بكر وحقن له دمه. وكذلك فعل مع « قرة بن هبيرة »)

وكتب « خالد بن الوليد » إلى الخليفة رسالة أرسلها مع الأسرى جاء فيها : (**ان بني عامر أقبلت بعد إعراض ، ودخلت في الاسلام بعد تربص ، وإني لم أقبل من أحـــد قاتلني أو سالمني شيئاً حتى يجيئوني بمن عدا على المسلمين . فقتلتهم كل قتلة . وبعثت اليك« بقرّة » وأصحابه**) وأجابه أبو بكر فكتب له: (... ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً واتق الله في أمرك ،

← يهوي عليها منهوى... ابعثوا فارسين على فرسين أدهمين، من بني نصر بن قعين : يأتيانكم بعين) . وعندما هزمه « خالد » هرب « طليحة » إلى الشام، ثم نزل على « كلب » فاسلم حين بلغه ان اسداً وغطفان قد اسلموا ، ولم يزل مقيماً في « كلب » حتى مات « ابو بكر » وكان قد خرج « معتمراً » في امارة « ابي بكر » ومر بجنبات المدينة ، فقيل لأبي بكر هذا « طليحة » فقال : ما اصنع به قد اسلم . ثم أتى « عمر » فبايعه حين استخلف ، فقال له : انت قاتل « عكاشة وثابت » والله لا احبك ابداً . وخروج « طليحة » بعد ذلك إلى الشام ، وجاهد الفرس في القادسية وغيرها ، وكان « طليحة » من اشجع العرب وكان يعد بألف فارس .

ابن الأثير ٢/٢٣٤–٢٣٥ والطبري ٣/٢٦٠–٢٦١ والاصابة٣/٢٩٦ والاستيعاب ٢/٧٧٣ .

فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . جدّ في أمر الله ولا تَنيَنّ ، ولا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ونكلت به غيره ، ومن أحببت ممن حادّ الله أو ضاده ! ممن ترى أن في ذلك صلاحاً فاقتله) فأقام « خالد » على « البزاخة » شهراً ، يُصعّد عنها ويصوب ، ويرجع اليها في طلب أولئك . فمنهم من أحرق ، ومنهم من قمطه ورضخه بالحجارة ، ومنهم من رمى به من رؤوس الجبال[1] .

٢ ـ **خالد مع أم زمل** : اجتمعت فُلاّل غطفان إلى ظفر ، وبها « أم زمل » سلمى ابنة مالك بن حذيفة بن بدر – (وهي تشبه بأمها – أم قرفة بنت ربيعة بن فلان بن بدر)[2] وكانت

---

(١) أقبلت « بنو عامر » بعد هزيمة أهل « بزاخة » يقولون : ندخل فيما خرجنا منه : ونؤمن بالله ورسوله . وأتوا «خالداً» فبايعهم على ما بايع أهل بزاخة ، وأعطوه ما بأيديهم على الاسلام . وكانت بيعته (عليكم عهد الله وميثاقه لتؤمنن بالله ورسوله ولتقيمن الصلاة ولتؤتن الزكاة وتبايعون على ذلك أبناءكم ونساءكم . فيقولون : نعم) ابن الأثير ٢/٢٣٦ .

(٢) كانت « أم قرفة » عند « مالك بن حذيفة » فولدت له قرفة وحكمة وجراشة وزملاً وحصيناً وشريكاًوعبداً وزفر ومعاوية وحملة وقيساًولأياً.فأما « حكمة » فقتله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أغار «عيينة بن حصن » على سرح المدينة ، قتله أبوقتادة . ثم سبيت سلمى مع امها ، «أم قرفه » فوقعت لعائشة فاعتقتها ، فكانت تكون عندها ، ثم رجعت إلى قومها ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليهن يوماً فقال : إن إحداكن تستنبح كلاب الحوءب ، ففعلت سلمى ذلك حين ارتدت وطلبت بذلك الثأر فسيرت فيما بين ظفر والحوءب) الطبري ٣/٢٦٣ – ٢٦٤ .

سلمى على مثل عز أمها وعندهـــا جمل « أم قرفـة » فنزل « الفُـلاَّل » اليها ، فذمرتهم وأمرتهم بالحرب . وصعدت سائرة فيهم ، وصوَّبت تدعوهم إلى حرب « خالد » حتى اجتمعوا لهـا وتشجعوا على ذلك . والتجأ « تأشب » اليهم الشرداء من كل جانب . فاجتمع اليها كل جماعـــة منهزمون ومضيق عليهم من تلك الأحياء (من غطفان وهوازن وسليم وأسد وطيء) . فلما بلغ ذلك « خالداً » وهو فيما هو فيـــه من تتبع الثأر وأخذ الصدقة ودعاء الناس وتسكينهم. سار إلى المرأة وقد استكثف أمرها ، وغلـُظ شأنها ، فنزل عليها وعلى جُمّاعها فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وهي واقفة على جمل أمها ، وفي مثل عزها . وكان يقال : من نخس جملها فله مائة من الإبل لعزها . وأبيدت يومئذ بيوتات ، وأصيب في أناس من « كاهل » . وكان قتالهم شديداً، حتى اجتمع على الجمـل فوارس فعقروه وقتلوهـا . وقتل حول جملها مائة رجل .

٣ ـ **مع « مالك بن نويرة »** : عندما فرغ « خالد » منفزارة وغطفان وأسد وطيء. أراد التوجه إلى « البطاح » وبها «مالك ابن نويرة » . ولكن الأنصار تخلفت عن « خالد » وقالوا : مـا هذا بعهد الخليفة إلينا ، إن الخليفة عهد الينا ان نحن فرغنا من « بزاخة » واستبرأنا بـــلاد القوم أن نقيم حتى يكتب الينا . فقال « خالد » : **(قد عهد إلي أن أمضي ، وأنا الأمير : ولو لم يأت كتاب بما رأيته فرصةوكنت إنأعلمْته فاتتني لم أعلمه حتى انتهزها . وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد لم ندع أن**

نرى أفضل ما يحضرنا ، ثم نعمل به . وهذا « مالك بن نويرة » بحيالنافأنا قاصد اليه ومن معي من المهاجرين ، ولست أكرههم) ومضى « خالد » وندمت الأنصار وتذامروا وقالوا : (ان أصاب القوم خيراً حرمتموه ، وان أصيبوا ليجتنبنكم الناس ، فلحقوه .

كان « مالك بن نويرة » قد عقد حلفاً مع « مسيلمة » و« سجاح » من أجل مجابهة قوات المسلمين فلم يفاجئهم إلا دنو « خالد » اليهم فارفضوا . وانصرفت « سجاح » إلى الجزيرة ، حيث نزلت على أخوالها « بني تغلب » . وارعوى « مالك بن نويرة» وندم وتحير في أمره، ولما غشى المسلمون مالكاًوأصحابه ليلاً أخذوا السلاح . فقالوا : نحن مسلمون . فقال أصحاب مالك. ونحن المسلمون . قالوا لهم : ضعوا السلاح فوضعوه ، ثم صلوا . وسألهم « خالد » عن سبب حملهم السلاح والاستعداد للحرب بقوله : فما بال السلاح معكم ؟ فأجابوه . فما بال السلاح معكم ؟ واختلف المسلمون ، وحدث غموض تسبب في مصرع « مالك ابن نويره » وعندما علم « أبو بكر » بالموقف استدعى خالداً للمثول بين يديه . فخرج « خالد » إلى المدينة ، حيث شرح له ما حدث ، فرضي عنه (أنظر خالد وحرية العمل لمتابعة ما حدث) .

٤ – « خالد » ومسيلمة وأهل اليمامة : يطلق المسلمون على السنة العاشرة للهجرة اسم « عام الوفود » ذلك ان « فتح مكة »

في السنة الثامنة للهجرة قـــد عزز من مكانة الاسلام والمسلمين وأخذت وفود القبائل في التوجه إلى المدينة لمبايعة الرسول ﷺ وإعلان إسلامها على يديه وقد استمرت هذه الحركة في اتجـاه المدينة حتى وصلت ذروتهـــا في السنة العاشرة للهجرة . وفي هـذه السنة وفد فيمن وفد إلى المدينة « بنو حنيفة » وكان « مسيلمة » في أفراد القبيلة ، وقد فضّل الوقوف بعيداً، والبقاء لرعايـة « رواحل » القبيلة عوضاً عن التوجه لمقابلة الرسول . وتقدم الوفد إلى النبي ﷺ ، وأشهروا إسلامهم ، ثم ذكروا له مكان مسيلمة ، وقالوا : (يا رسول الله ، إنا قد خلفنا صاحباً لنا في رحالنا وركابنا يحفظها لنا) قال : فأمر رسول الله بمثل ما أمر به للقوم ، وقال: (أما إنه ليس بشركم مكاناً ، يحفظ ضيعة أصحابه وذلك الذي يريد رسول الله).وانصرف « بنو حنيفة» وجاءوا « مسيلمة » بما أعطاه رسول الله ، فلما انتهى إلى اليمامة، ارتد عدو الله ، وتنبأ ، وتكذب لهم، وقال: (إني قدأشركت بالأمر معه ... ألم يقل لكم رسول الله حيث ذكرتموني : أما إنه ليس بشركم مكاناً ! ما ذلك إلا لما كان يعلم أني قد أشركت معه) ومضى « مسيلمة » وهو يسجع السجعات في محـــاولة لمضاهاة القرآن[1] وكان مسيلمة يصانع كل أحد ويتألفه ولا يبالي أن يطلع الناس منـــه على قبيح ، وكان معه « نهـاد الرجال بن

---

(١) تاريخ الطبري ١٣٨/٣ و ٢٨١ – ٣٠٠ وابن الأثير ٢٤٣/٢ – ٢٤٩ .

عنفوة » وكان قد هاجر إلى النبي ﷺ ، وقرأ القرآن وفقه في الدين فبعثه معلماً لأهل اليمامة ، وليشغب على مسيلمة وليشدد من أمر المسلمين ، فكان أعظم فتنة على بني حنيفة من « مسيلمة » شهد له أنه سمع محمداً ﷺ يقول: (انه قد أشرك معه ،فصدقوه واستجابوا له وأمروه بمكاتبة النبي ﷺ ، ووعدوه إن هو لم يقبل أن يعينوه عليه ، فكان « نهاد الرجال بن عنفوة » لا يقول شيئاً إلا تابعه عليه ، وكان ينتهي إلى أمره .

وكان الخليفة « أبو بكر » رضي الله عنه يعرف خطورة « مسيلمة » ولهذا أعطى القتال مع أهل « اليمامة » الأفضلية الأولى ، وعين لقيادة حربها أفضل رجاله ، خالد بن الوليد ، ولكن « خالداً » كان مشغولاً بقتال المرتدين من أحلاف « مسيلمة » وهكذا فعندما فرغ « خالد » من قتالهم ، وحدثت حادثة « مالك بن نويرة » استدعاه إلى المدينة ، وعالج معه الموقف ، ثم كلفه بالتوجه لقتال « مسيلمة » . ولكن قبل ذلك، كان الخليفة « أبو بكر » رضي الله عنه ، قد وجه « عكرمة بن أبي جهل » لقتال« مسيلمة » واستطاع هذا الحاق الهزيمة بالمسلمين الذين يقودهم «عكرمة» فكتب هذا إلى الخليفة،فأجابه: (**يا ابن أم عكرمة ، لا أرينك ولا تراني على حالها ، لا ترجع فتوهن الناس ، امض على وجهك حتى تساند حذيفة وعرفجة فقاتل معهما أهل « عمان ومهرة » وإن شغلا فامض أنت ، ثم تسير وتسير جندك** ، تستثيرون من مررتم به ، حتى تلتقوا أنت والمهاجر بن أمية باليمن وحضرموت) .

وجه الخليفة بعـــد ذلك « شرحبيل بن حسنة » ولكن « شرحبيل » فعل مثل ما فعله « عكرمة » وبادر بقتـــال « مسيلمة » الذي استطاع الحاق الهزيمـة به أيضاً . فزاد ذلك ثقلاً على نفوس المسلمين وزاد من قوة الروح المعنويـة للمرتدين الذين يقودهم « مسيلمة » وتعاظمت ثقتهم بالنصر . وعندمـــا وصلت أنباء هذه الهزيمة الجديدة إلى الخليفة ، أصدر أمره إلى « شرحبيل » بالبقاء في موقعه ، وكان في رسالته اليـه : (إذا قدم « خالد » عليك ، ثم فرغتم إن شاء الله ، فالحق بقضاعـة ، حتى تكون أنت وعمرو بن العاص على من أبى منهم وخالف) ووجه الخليفةعلى الفور « خالد بن الوليد » إلى «البطاح »وأمره بالتوقف ريثما يصل إليـــه الدعم الذي كان ينظمه ، وتعجل « خالد » بالوصول إلى « البطاح » وأوعب الناس وعلى الأنصار « ثابت بن قيس والبراء » وعلى المهاجرين « أبو حذيفة وزيـد » وعلى كل قبيلة رجل . ووجه « خالد » اللوم إلى « شرحبيل » وكلفه بقيادة الفرسان والعمل كمقدمة للمسلمين .

وصل الدعم الذي كان ينتظره « خالد » بقيادة « سليط »[1]

---

(١) هو سليط بن قيس الأنصاري الخزرجي ، من الفرسان المسلمين الذين اشتهروا بشجاعتهم ، شهد بدراً وما بعدهـــا من المشاهد ، وكان في جيش العراق . واشترك في معركة « المروحة ، أو قس النـــاطف ، او الجسر التي قادها أبو عبيد الثقفي » وقد عارض سليط ـ أبا عبيد ـ واقترح عدم تجـاوز النهر ، ولكن أبا عبيد أصر على موقفه ، فعبر المسلمون الجسر وخاضوامعركة ضد الفرس انتهت بهزيمة المسلمين هزيمة قاسية ، وفي هذه المعركة قتل القائدان الفارسان ، سليط وأبو عبيد .

فكلفه « خالد » بقيادة المؤخرة ، مخافة أن يأتوه من خلفه .
وبدأ « خالد » تحركه نحو « عدو الله » .

لما بلغ « مسيلمة » دنو « خالد » ضرب عسكره « بعقرباء » واستنفر الناس ، فجعل الناس يخرجون اليه . وخرج « مجاعة ابن مرارة »[1] في سرية يطلب ثأراً له في « بني عامر » وقد أدرك ثأره ، وعاد مع فرسانه – وعددهم ثلاثة وعشرون فارساً ركباناً – حتى إذا وصلوا إلى « ثنية اليمامة » على بعد ليلة من معسكر « مسيلمة » أدركهم النعاس ، فناموا وأرسان خيولهم بأيديهم تحت خدودهم وهم لا يشعرون بقرب جيش المسلمين منهم ، وباغتهم المسلمون وهم نيام ، وقالوا « من أنتم »؟ قالوا : هذا مجاعة ، وهذه « حنيفة » قالوا : وأنتم فلا حيّاكم الله ! فأوثقوهم وأقاموا إلى أن جاءهم « خالد بن الوليد » فأتوه بهم ، فظن « خالد » أنهم جاءوه ليستقبلوه وليتقوه بحاجته ، فقال : متى سمعتم بنا؟ قالوا: ما سمعنا بك وما شعرنا بك، إنما خرجنا لثأر لنا فيمن حولنا من « بني عامر – و – تميم » ولو فطنوا لقالوا : تلقيناك حين سمعنا بك . وقال لهم « خالد » : (يا بني

---

(١) مجاعة بن مرارة الحنفي ، من زعماء قومه ، وفد هو وأبوه على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتد ، فحاربهم « خالد » ووقع أسيراً ، فتم تكليف « أم تميم » زوج خالد بحراسته . واثناء المعركة وصل المرتدون إلى قباء « خالد »واقتحموا على « أم تميم »خيمتها وأرادوا الفتك بها ، فنهاهم «مجاعة» عن ذلك بقوله : (أنا لها جار ، فنعمت الحرة هي) فدفعهم عنها ، ثم تولى الصلح مع « خالد » نيابة عن قومه بعد مقتل مسيلمة وانتصار المسلمين .

حنيفة — مـــا تقولون ؟) قالوا : نقول منا نبي ومنكم نبي . فعرضهم على السيف، حتى إذا بقي منهم رجل يقال له « سارية ابن عامر » و « مجاعة بن مرارة » قال سارية لخالد : أيها الرجل إن كنت تريد بهذه القرية غداً خيراً أو شراً، فاستبقِ هذا الرجل — يعني مجاعة — فأمر به خالد فأوثقه في الحديد ، ثم دفعه إلى « زوجته » أم تميم فقـــال : استوصي به خيراً — ثم مضى حتى نزل على كثيب مشرف على اليمامة ، فضرب به عسكره .

قاد « مسيلمة » قواته التي تزيـــد على أربعين ألف مقاتل لمجابهة « خالد » الذي لم تكن قوته تزيد على ثلاثـة عشر ألف مجاهد في سبيل الله . وأراد « مسيلمة » ابعاد الحرب عن معقله، فترك ريف اليمامـــة وراءه ، ودفع على مقدمته « الرجّال بن عنفوة »[1] وانطلق « شرحبيل بن مسيلمـة » يستثير حماسة

---

(١) الرجال بن عنفوة (ويقال الرحال) من بني حنيفة ، كان قد أسلم، وقرأ سورة البقرة ، وحضر مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم . ويذكره الصحابي « أبو هريرة » فيقول : (جلست مـع النبي صلى الله عليـه وسلم في رهط ومعنا « الرجال بن عنفوة » فقال : (إن فيكم لرجـلاً ضرسه في النار أعظم من أحـــد — جبل أحد — فهلك القوم وبقيت أنا والرجال فكنت متخوفاً لها ، حتى خرج الرجال مع مسيلمة ، فشهد له بالنبوة ، فكانت فتنـة الرجال أعظم من فتنة مسيلمة . فأمنت وعرفت أن ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حق) . وعندما توجه المسلمون إلى « اليمامة » كانوا يسألون عن الرجال يرجون أنه يثلم على أهل اليمامة أمرهم باسلامـــه . فلقيهم في أوائل الناس متكتباً : وقد قال : « خالد بن الوليـد » وهو جالس على سريره ، وعنده أشراف الناس والناس على مصافهم، وقد رأى بارقة في بني حنيفة ←

المرتدين ويحرضهم على القتال ويقول لهم: (يا بني حنيفة ، اليوم يوم الغيرة ، اليوم ان هزمتم تستردف النساء سبيات ، وينكحن غـــير خطيبات – حظيات – فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم). ونظم « خالد »قواته ،فدفع مقدمته بقيادة« شرحبيل ابن حسنة » وقـــاد هو القلب ، وجعل على المجنبتين زيد بن الخطاب وأبا حذيفة ليقابـل مجنبتي « مسيلمة » اللتين كان يقودهما « المحكم والرّجـال » . ووقف المهاجرون خلف رايتهم التي يحملها « سالم مولى أبي حذيفــة » وقالوا له : (تخشى علينا من نفسك شيئاً ؟ فقال : بئس حامل القرآن أنا إذاً).

التقى النـــاس ، فاقتتلوا قتــالاً شديداً ، ولم يلقهم قط مثلها من حرب العرب . وكان « الرجال » بحيال « زيد بن الخطاب» فلما دنا صفّاهما قال له زيد : « الله الله فوالله لقد تركت الدين ، وإن الذي أدعوك اليـــه لأشرف لك ، وأكثر لدنياك » فأبى فاجتلدا ، فقُتل الرجال وأهل البصائر من بني حنيفــة في أمر مسيلمة ، فتذامروا، وحمل كل قوم في ناحيتهم ، وانهزم المسلمون حتى بلغوا معسكرهم ، وخلص « بنو حنيفة » إلى « مجاعــة » وإلى « خالد » فزال خالد عن فسطاطه ودخـل اناس الفسطاط

← « أبشروا يا معشر المسلمين، فقد كفاكم الله أمر عدوكم. واختلف القوم إن شاء الله . فنظر « مجاعة » وهو خلفه موثقاً في الحديد ، فقال : كلا والله. ولكنها الهندوانية خشوا عليها من تحطمها فأبرزوهـــا للشمس لتلين لهم . فكان كما قال . فلما التقى المسلمون ، كان أول من لقيهم الرجال بن عنفوة ، فقتله الله. تاريخ الطبري ٣/٢٨٧ – ٢٨٩ .

وفيه « مجاعــــة » عند أم تميم ، فحمل عليها رجل بالسيف . فأجارها « مجاعة » وقال لهم « عليكم بالرجال » فمزقوا الفسطاط بالسيوف . وانطلق فرسان « بني حنيفة » إلى خيــام المسلمين ، يقطعون أطنابهــا . ويبحثون عن المقاتلين . وتذامر زيد وخالد وأبو حذيفة والبراء بن مالك وغيرهم. وكان لكل قائد من القادة موقفه الحازم الذي ساعد على تحول الموقف لصالح المسلمين .

وقف « زيــد بن الخطاب » يستنفر الرجــال الذين أوكل اليهم الدفاع عن « رحـــال المسلمين » وقال لهم « لا تحوز بعد الرحــال » ثم قال يخاطب المسلـــين : « لا والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو القى الله فأكلمه بحجتي ! عضوا على أضراسكم أيها الناس ، واضربوا في عدوكم . وامضوا قدمــاً ... افعلوا كما أفعل». وانطلق « زيد » يقاتل حتى قتل. ووقف ثابت بن قيس ليقول : « يا معشر المسلمين ، اللهم إني أبرأ اليك مما يعبد هؤلاء – يعني أهل اليمامة – وأبرأ اليك ممـــا يصنع هؤلاء – يعني المسلمين – . يا معشر المسلمــين : أنــتم حزب الله وهم أحزاب الشيطان ، والعزة لله ولرسوله ولأحزابــه ، أروني كما أريكم » ومضى يقاتــل حتى قتل . وثار البراء بن مالك – أخو أنس بن مــالك – وكان في ثورتــه كالأسد ، فمضى يحرض المسلمين على الجهاد ، ويقول لهم: « أين معشر المسلمين - أنا البراء بن مالك– هلم إلي » وفاءت فئة من الناس فقاتلوا المرتدين حتى قتلهم الله ، ووقف « محكم بن الطفيل » يستثير قومه ، فرمـاه عبد الرحمن ابن أبي بكر الصديق بسهم فوضعــه في نحره فقتله . وفعــل

« أبو حذيفة » مثل الذي فعله بقية القادة ، فأخذ يستثير حماسة المسلمين بقوله : « يا أهل القرآن ، زينوا القرآن بالفعال » وحمل فحازهم حتى أنفذهم ، وأصيب فسقط شهيداً . وحمل « خالد بن الوليد » وقال لحماته : لا أوتين من خلفي . وانطلق بهجوم مضاد فردوا المشركين وأعادوهم إلى أبعد من الغاية التي حيزوا اليها من عسكرهم . ووقف « خالد » بحيال « مسيلمة » يرقبه ويطلب الفرصة. واشتد القتال – وكانت الحرب يومئذ سجالاً ، إنما تكون مرة على المسلمين ومرة على الكافرين. فقال «خالد»: (أيها الناس! امتازوا لنعلم بلاء كل حي، ولنعلم من أين نؤتى)[1] فامتاز أهل القرى والبوادي ، وامتازت القبائل من أهل البادية وأهل الحاضر ، فوقف بنو كل أب على رايتهم ، فقاتلوا جميعاً ، فقال أهل البوادي يومئذ : الآن يستحر القتل في الأجذع الأضعف ، فاستحر القتل في أهل القرى ، وثبت « مسيلمة » ودارت رحاهم عليه ، فعرف « خالد » أنها لا تركد إلا بقتل

---

(١) جاء في تاريخ الطبري ٣/٢٩٢ (ان المهاجرين والأنصار جبنوا أهل البوادي وجبنهم أهل البوادي ، فقال بعضهم لبعض : امتازوا كي نستحيا من الفرار اليوم ، ونعرف اليوم من أين نؤتى ! ففعلوا . وقال أهل القرى : نحن أعلم بقتال أهل القرى يا معشر أهل البادية منكم ، فقال لهم أهل البادية : إن أهل القرى يا معشر أهل البادية منكم ، فقال لهم أهل البادية : إن أهل القرى لا يحسنون القتال ولا يدرون ما الحرب افسترون إذا امتزنا من أين يجيء الخلل ! فامتازوا ، فمارئي يوم كان أحد ولا أعظم نكاية مارئي يومئذ ، ولم يدر أي الفريقين كان أشد فيهم نكاية ! إلا أن المصيبة كانت في المهاجرين والأنصار أكثر منها في أهل البادية . وأن البقية أبداً في الشدة .

« مسيلمة » ولم تحفل « بنو حنيفــة » بقتل من قتل منهم ، ثم برز « خالد » حتى إذا كان أمام الصف دعـــا إلى « البراز » وانتمى ، وقال : أنا ابن الوليد العود ، أنا ابن عامر وزيــد ! ونادى بشعارهم يومئذ ، وكان شعارهم يومئذ : يا محمداه !فجعل لا يبرز له أحد إلا قتله ، وهو يرتجز :

أنا ابن أشياخ وسيفي السّخت

أعظم شيء حين يأتيك النفت[1]

ولا يبرز له شيء إلا أكله، ودارت رحى المسلمين وطحنت ! ثم نادى « خالد » حين دنا من « مسيلمة » وكان رسول الله ﷺ قال: إن مع مسيلمة شيطاناً لا يعصيه ، فاذا اعتراه أزْبَدَ كأن شدقيه زبيبتان لا يهم بخير أبداً إلا صرفه عنه ، فاذا رأيتم منه عورة ، فلا تقيلوه العثرة ، فلما دنا « خالد » منه طلب تلك ، ورآه ثابتاً ورحاهم تدور عليه ، وعرف أنها لا تزول إلابزواله، فدعا مسيلمة طلباً لعورته، فأجابه،فعرض عليه أشياء ممايشتهي «مسيلمة» ، وقال : إن قبلنا النصف ، فأي الانصاف تعطينا ؟

---

(١) كان ضرار بن الأزور يقاتل إلى جانب « خالد » ، وقــد قال في معركة « اليمامة » :

ولو سئلت عنا جنوب لأخبرت	عشية ســالت عقرباء وملهم
وسال بفوع الوادي حتىترقرقت	حجارته فيهـا من القوم بالدم
عشية لا تغني الرماح مكانها	ولا النبـل إلا المشرفي المصمم
فإن تبتغي الكفار غـير مليمة	جنوب فـإني تابـع الدين مسلم
أجاهد إذ كان الجهـــاد غنيمة	ولله بالمرء المجاهــد أعلـــم

فكان إذا همّ بجوابه أعرض بوجهه مستشيراً فينهاه شيطانه أن يقبل، فأعرض بوجهه مرة ذلك ،وركبه « خالد» فأرهقه وأدبر، وزالوا ، فذمر خالد الناس ، وقال: دونكم لا تقيلوهم !واركبوهم فكانت هزيمتهم ، فقال « مسيلمة » حين قام ، وقد تطاير الناس عنه ، وقال قائلون : أين ما كنت تعدنا ! قال : قاتلوا عن أحسابكم. ونادى المحكم: يا بني حنيفة، الحديقة الحديقة ! وتدافع « بنو حنيفة » والمسلمون يتبعونهم ويقتلونهم حتى بلغوا بهم إلى « حديقة الموت » فدخلوها وأغلقوها عليهم . وأحاط المسلمون بهم ، وصرخ « البراء بن مالك » فقال : يا معشر المسلمين : احملوني على الجدار حتى تطرحوني عليه فلما وضعوه على الجدار اقتحم عليهم ، فقاتلهم على الباب حتى فتحه للمسلمين وهم على الباب من خارج ، فدخلوا . فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يروا مثله وأبيد من في الحديقة منهم . ويأتي « وحشي » على مسيلمة وهو مزبدٌ متساندٌ لا يعقل من الغيظ ، فخرط عليه حربته ، وأقبل رجل من الأنصار فضربه بسيفه ، فكان « وحشي » يقول : ربك أعلم أينا قتله[1] .

قتل في «حديقة الموت» وفي المعركة أربعة عشر ألف مقاتل من المرتدين واستشهد من المهاجرين والأنصار من أهل قصبة المدينة يومئذ عدد كبير ويذكر أن عدد الشهداء من أهل المدينة

---

(١) « وحشي » هذا هو قاتل حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أسلم بعد ذلك ، وكان في جند خالد أثناء فتح العراق والشام .

والتابعين باحسان ثلثمائة من هؤلاء وثلثمائة من هؤلاء أو يزيدون بالإضافة إلى ثلثمائة وستين من المهاجرين والأنصار فيكون مجموع شهداء المسلمين ألفاً يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً . في حين كان قتلى بني حنيفة في الفضاء بعقرباء سبعة آلاف ، وفي حديقة الموت سبعة آلاف وفي الطلب نحو منها .

لما فرغ المسلمون من مسيلمة ، خرج لتفقد ميدان المعركة ومعه «مجاعة» يرسف في الحديد ، ليدله على «مسيلمة» فجعل يكشف له القتلى حتى مر « بمحكم بن الطفيل » وكان رجلاً جسيماً وسيماً فلما رآه « خالد » قال : هذا صاحبكم ؟ قال : لا ! هذا والله خير منه وأكرم ، هذا « محكم اليمامة » . ثم مضى « خالد » يكشف له القتلى حتى دخل « الحديقة » فقلب له القتلى ، فاذا رُوَيجل أصيغر أُخينس . فقال « مجاعة » : هذا صاحبكم الذي فعل بكم ما فعل . ولما فرغ « خالد » من معركته ، قال له « عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر » : ارتحل بنا وبالناس فانزل على الحصون ، فقال : دعاني أبث الخيول فالتقط من ليس في الحصون ثم أرى رأيي . فبث الخيول ، فحووا ما وجدوا من مال ونساء وصبيان ، فضموا هذا إلى العسكر . ونادى بالرحيل لينزل على الحصون ، فقال له مجاعة : « انه والله ما جاءك إلا سرعان الناس ، وإن الحصون لملوءة بالرجال . فقال : ويلك ما تقول . قال هو والله الحق ، فهلم لأصالحك على قومي » فصالحه على كل شيء دون النفوس . ثم قال : انطلق

اليهم ، فأشاورهم وننظر في هذا الأمز ، ثم أرجع اليك. فدخل « مجاعة » الحصون ، وليس فيها إلا النساء وأمرهن أن ينشرن شعورهن وأن يشرفن على رؤوس الحصون حتى يرجع اليهن . ثم رجع ، فأتى خالداً فقال : قد أبوا يجيزوا ما صنعت ، وقد أشرف لكم بعضهم نقضاً علي وهم مني براء . فنظر « خالد » إلى رؤوس الحصون وقد اسودت ، وقد نهكت المسلمين الحرب . وطال اللقاء ، وأحبوا أن يرجعوا على الظفر . ولم يدروا ما كان كائناً لو كان فيها رجال وقتال . واقترح « مجاعة » شروطاً جديدة للصلح فقال « لخالد » إن شئت أن تقبل مني نصف السبي والصفراء والبيضاء والحلقة والكراع ، وعزمت وكتبت الصلح بيني وبينك ، ففعل « خالد » ذلك . ثم سرحه وقال : انتم بالخيار ثلاثاً ، والله لئن تتموا وتقبلوا لأنهدن اليكم . ثم لا أقبل منكم خصلة أبداً إلا القتل .

مضى «مجاعة» إلى قومه، وقال لهم : «الآن اقبلوا» وتصدى له « سلمة بن عمر الأنصاري » فقال : « لا والله لا نقبل ، نبعث إلى أهل القرى والعبيد فنقاتل ولا نقاضي خالداً » ثم خاطب قومه بقوله : « يا بني حنيفة ! قاتلوا عن أحسابكم ولا تصالحوا على شيء . فان الحصن حصين ، والطعام كثير ، وقد حضر الشتاء » فقال « مجاعة » : « يا بني حنيفة ! أطيعوني واعصوا « سلمة » فانه رجل مشؤوم ، قبل أن يصيبكم ما قال شرحبيل ابن مسيلمة : قبل أن تستردف النساء غير رضيات ، وينكحن غير خطيبات » فأطاعوه وعصوا « سلمة » وقبلوا قضيته .

فلما فرغا ، فتحت الحصون ، فإذا ليس فيها إلا النساء والصبيان فقال « خالد » لمجاعة : « ويحك خدعتني » قال : « قومي -ولم أستطع إلا ما صنعت »[1] .

وصلت بعد ذلك رسالة من الخليفة « أبو بكر » رضي الله عنه إلى « خالد بن الوليد » : (يأمره ان ظفّره الله عز وجل أن يقتل من جرت عليه المواسي من « بني حنيفة ») ولكن «خالد» كان قد صالحهم ، فوفى لهم: وحشرت « بنو حنيفة » إلى البيعة والبراءة مما كانوا عليه إلى « خالد » و « خالد في عسكره » فلما اجتمعوا قال « سلمة بن عمير الحنفي » لمجاعة : « استأذن لي خالد أكلمه في حاجة لهُ عندي ونصيحة » — وكان قد أجمع — قرر — أن يفتك به . فكلمه ، فأذن له ، فأقبل « سلمة بن عمير » مشتملاً على السيف يريد ما يريد . فقال « خالد » لما أبصر به : من هذا المقبل ؟ قال « مجاعة » : « هذا الذي كلمتك فيه ، وقد أذنت له ! » قال : « أخرجوه عني » فأخرجوه عنه ، ففتشوه فوجدوا معه السيف ، فلعنوه وشتموه وأوثقوه. وقالوا : « لقد أردت أن تهلك قومك ، وايم الله ما أردت إلا أن تستأصل بنو حنيفة ، وتسبي الذرية والنساء ، وايم الله لو أن

---

(١) كان نص الصلح كما ذكره الطبري ٣/٢٩٨ هو : (هذا ما قاضى عليه خالد بن الوليد بن مجاعة مرارة وسلمة بن عميرة وفلاناً وفلاناً ، قاضاهم على الصفراء والبيضاء ونصف السبي والحلقة والكراع وحائط من كل قرية ومزرعة على أن « يسلموا » ثم أنتم آمنون بأمان الله ، ولكم ذمة خالدبن الوليد وذمة أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذمة المسلمين على الوفاء) .

خالداً علم أنك حملت السلاح لقتلك . وما نأمنه إن بلغه ذلك أن يقتلك وأن يقتل الرجال ويسبي النساء بما فعلت ، ويحسب أن ذلك عن بلاء منـا » فأوثقوه وجعلوه في الحصن ، وتتابع « بنو حنيفة » على البَراء مما كانوا عليه ، وعلى الاسلام. وعاهدهم « سَلمة » على ألا يحدث حدثاً ويعفوه ، فأبوا ولم يثقوا بحمقه أن يقبلوا منه عهداً ، فأفلت ليلاً ، فعمد إلى عسكر « خالد » فصاح به الحرس ، وفزعت « بنو حنيفة » فاتبعوه فأدركوه في بعض الحوائط ، فشد عليهم بالسيف فاكتنفوه بالحجارة . وأجـال السيف على حلقه فقطع أوداجه ، فسقط في بئر فمات.

أقام « خالد » بعد ذلك في ديار « بني حنيفة » وأرسل إلى الخليفة خمسمائة رأس ممن جرى عليه القسم بالعِرض والقرية من بني حنيفة أو قيس بن ثعلبة أو يشكر ، فقدموا عليه فقال لهم أبو بكر: « ويحكم! ما هذا الذي استزل منكم ما استزل! قالوا: ياخليفة رسول الله : قد كان الذي بلغك مما أصابنا ، كان أمراً لم يبارك الله عز وجل له ولا لعشيرته فيه » .

وعاد المسلمون إلى المدينـة ، وفيهم « عبد الله بن عمر » واستقبل « عمر بن الخطاب » ابنه « عبد الله » فقال له : « ألا هلكت قبل زيـد — أخو عمر — هلك زيد وأنت حي ، ألا واريت وجهك عني». فقال عبدالله: « سأل الله الشهادة فأعطيها وجهدت أن تساق إليّ فلم اعطها[1] ».

---

(١) الكامل في التاريخ — ابن الأثير : ٢/٢٤٧ والطبري ٣/٢٩٢ .

٤ ــ « خالد » على جبهة العراق

كان « المثنى بن حارثــة الشيباني » يقاتل على جبهة العراق عندما كانت جيوش المسلمين تحارب المرتـــدين في قلب الجزيرة العربيــة ، وانتهت حروب الردة بانتهاء السنة الحادية عشرة للهجرة تقريباً ، وما أن انتهتْ حروب الردة بانتصار المسلمين ، وعادت للجزيرة وحدتها ، ورجع المسلمون أسرة واحدة حتى كأنهم بني أب وأم حتى أصدر الخليفــة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه مجموعة الأوامر التالية :

أ ــ إلى خالد بن الوليــد : (سر إلى العراق حتى تدخلها ، وابدأ بفرج الهند ، وهي « الأبلة » وتألف أهــل فارس ، ومن كان في ملكهم من الأمم)[١] وأتبع الخليفة ذلك برسالة إلى

---

(١) الأبلة : مدينة كانت مرفأ السفن القادمة من الصين ، وتقع إلى جنوب البصرة القديمة بمسافة خمسة عشر ميلاً وجنوب مدينة « أبي الخصيب » بنحو ميلين . وفي الطبري أن خالد بن الوليد رجع إلى المدينــة ومنها توجه إلى العراق ، في حين أن هناك رواية أخرى تذكر أن رسالة الخليفة قد وصلت إلى خالد وهو في اليمامــة ، وتوجه منها مبـاشرة الى العراق . تاريخ الطبري ٣/٣٤٣ .

خالد وفتح العراق

« خالد بن الوليد » وإلى « عياض بن غنم » الذي كان بين النباج والحجاز (إلى عياض — أن سر حتى تأتي المصيخ[1] ، فابدأ بها ثم ادخل العراق من أعلاها، وعارق حتى تلقى خالداً . وأذَنا لمن شاءَ بالرجــوع ، ولا تستفتحا بمكروه) وأتبع ذلك رسالة إلى « خالد » و« عيــاض » (طلب فيها إلى « خالد » إذ أمره على حرب العراق أن يدخلها من أسفلها . وإلى عياض إذ أمره على حرب العراق أن يدخلها من أعلاهــا ، ثم يستبقا إلى الحــيرة ، فأيهما سبق إلى الحيرة فهو أمير على صاحبه ، وقال: إذا اجتمعتما بالحيرة ، وقد فضضتما مسالح فارس وأمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم، فليكن أحدكما ردء المسلمين ولصاحبه بالحيرة ، وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم ومستقر عزهم « المدائن ») .

قدم كتاب الخليفة إلى « خالد وعياض » وأذِنا بالرجوع لمن شاء ، فرجع أهل المدينة وما حولهــا ، وضعفت قوات « خالد وعياض » فكتبا إلى الخليفة يطلبان الدعم ، فرد عليهما برسالة جاء فيها (استنفرا من قاتل أهل الردة، ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ ، ولا يغزون معـــكم أحدٌ ارتد حتى أرى

---

(١) المصيخ : بضم الميم وفتح الصاد وتشديد الياء مع فتحها . موضع على حدود الشام مما يلي العراق وجاء في معجم البلدان ٧٩/٨ . ما يلي « مصيخ بني الرشاء » وهو بين حوران والقلت ، وكانت به وقعة هائلة لخالد على «بني تغلب» ومصيخ « بهراء » وهو مـــاء آخر بالشام ، ورده « خالد » بعد « سوى » في مسيره إلى «الشام».

رأيي) وهكذا حرم الخليفة « المرتدين » من شرف الجهاد في سبيل الله .

كتب بعد ذلك « خالد » إلى قادته ، وواعدهم ليوم حدده لهم ، ثم حشر مَن بينه وبين العراق فحشر ثمانية آلاف من ربيعة ومضر إلى ألفين كانا معه فقدم في عشرة آلاف على ثمانية آلاف ممن كان مع الأمراء الأربعة (المثنى ومذعوراً وسلمى وحرملة) فتجمع لديه ثمانية عشر الفاً.

بدأ خالد في إعادة تنظيم قواته قبل أن يغادر « اليمامة » متوجهاً إلى العراق ، ثم قسم جنده ثلاث فرق ، ولم يحملهم على طريق واحدة ، فسرح « المثنى » قبله بيومين ودليله « ظفر » . وسرح « عدي بن حاتم » و« عاصم بن عمرو » ودليلاهما « مالك ابن عباد وسالم بن نصر » أحدهما قبل صاحبه بيوم . وخرج « خالد » ودليله « رافع » فواعدهم جميعاً الحفير ليجتمعوا به وليصادموا به عدوهم .

١ ـ ذات السلاسل :

كان «هرمز» الفارسي هو حاكم «الثغر» من جنوب العراق، وكان من أسوأ أمراء ذلك الفرج جواراً للعرب ، فكل العرب عليه مغيظ ، وقد كانوا ضربوه مثلاً في الخبث حتى قالوا : أكفر من هرمز ، وأخبث من هرمز . وعندما أراد « خالد » التوجه للأبلة كتب إلى «هرمز» : (أما بعد فأسلم تسلم، أو اعتقدلنفسك

وقومك الذمة ، وأقرر بالجزيــة ، وإلا فلا تلومن إلا نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة) ولما قدم كتاب « خالد » على « هرمز » كتب بالخبر إلى « شيري بن كسرى » وإلى « أردشير بن شيري » وجمع جموعـــه ، ثم تعجل إلى « الكواظم »في سرعان أصحابه، ليتلقى خالداً. ولكنه وجد أن قوات المسلمين لم تصل إلى « الكواظم » وعلم أن المسلمين قد تواعدوا على اللقاء في « الحفير »[1] فأسرع « هرمز » بقواته إلى « الحفير » حتى يسبق « خالداً » اليهـا، ونظم قواته للمعركة ، ووضع لقيادة المجنبتين قائدين كبيرين من أُسرة الأكاسرة همـا « قباذ – وأنوشجان » واقترن بعض جنـد الفرس بالسلاسل ، كناية عن تصميمهم للقتال حتى النهاية[2] وأثار ذلك جدلاً بـين جند الفرس ، فقال من لم يرغب في استخدام السلاسل: (قيدتم

---

(١) كواظم ومفردها « كاظمة » في الكويت حاليـاً وتقع على الساحل الشمالي لخليج الكويت ، على بعد خمسة أميال من طريق البصرة – الكويت الحالي . وقد درست ولم يعد لها وجود ويحتمل أن تكون بعض خرائبهـا الباقية هي من أيام ما بعد خالد . أما « الحفير » فلا أثر لها ويحتمل أن تكون في مكان « الرميلة » الحالية التي تبعد ٢١ ميلاً عن البصرة القديمة . وفي معجم البلدان ٢٠٨/٧ أن الكواظم ، وهي كاظمة تقع على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة بينها وبين البصرة مرحلتان. وفي معجم البلدان أيضاً ٣٠٣/٣ أن الحفير أول منزل من البصرة لمن يريد مكة (والمسافة بين الحفير وكاظمة زهاء ٥٠ ميلا).

(٢) كانت جيوش العالم القديم تعتمد في بعض حروبها على تشكيل جنـد المشاة في تنظيم يتم فيه تقييد المقاتلين بسلاسل أطوالها مختلفة لربط خمسة جنود أو سبعة أو ثمانية أو عشرة لتكوين جدار صدمة .

أنفسكم لعدوكم ، فلا تفعلوا ، فإن هذا طائر سوء) وأجابهم المقيدون بالسلاسل: (أما أنتم فحدثوننا أنكم تريدون الهرب).

عندما علم « خالد » بتوجه « هرمز » إلى « الحفير » عمل من جديد على قيادة قوات المسلمين باتجاه « كاظمة » وبلغ « هرمز » ذلك ، فبادره إلى « كاظمة » فنزلها وهو غاضب — حسير ونظم قواته لمنع المسلمين من الوصول إلى ماء النهر « نهر الفرات » . وقدم « خالد » عليهم فنزل على غير ماء ، فقالوا له في ذلك . فأمر مناديه ، فنادى (ألا انزلوا وحطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء ، فلعمري ليصيرن الماء لأصبر الفريقين ، وأكرم الجندين)[1] فحطت الأثقال والخيل وقوف ، وتقدم المشاة ، واشتبكت القوات ، فاقتتلوا ، وأرسل الله سحابة ، وهطلت أمطار غزيرة ، وتوفر الماء للمسلمين . وأرسل « هرمز » أصحابه بالغد ، ليغدروا « بخالد » ثم خرج « هرمز » فنادى « أين خالد » ؟ فلما نزل « خالد » نزل « هرمز » ودعاه إلى النزال . فنزل خالد فمشى اليه ، فالتقيا فاختلفا ضربتين ، واحتضنه خالد ، وحملت حامية « هرمز » تريد الغدر « بخالد » فتبعوه ، فما شغل خالد عن قتل « هرمز » وحمل القعقاع بن عمرو على الحامية المرافقة لهرمز فأبادوهم ، وحمل المسلمون على الفرس ، فهزموهم وبدأت المطاردة التي استمرت حتى الليل ، وهرب « قباذ وأنوشجان » . واستولى المسلمون على غنائم كثيرة ، قسمها خالد على المسلمين

---

(١) تاريخ الطبري ٣٤٩/٣ .

وأرسل الخمس إلى بيت مال المسلمين في المدينة[1] .

عندما انتهت المعركة نادى منادي « خــالد » بالرحيل . وسار بالناس ، واتبعته الأثقال حتى ينزل بموضع الجسر الأعظم من البصرة اليوم . وما أن نزل حتى بعث المثنى بن حارثة في آثار القوم ، وأرسل « معقل بن مقرن المزني » إلى « الأبلة » ليجمع مالها والسبي فخرج « معقل » حتى نزل « الأبلة » فجمع الأموال والسبايا .

٢ ـ وقعة المذار « الثني » وتسمى أيضاً معركة النهر[2]:

عندما وصلت رسالة « هرمز » إلى الامبراطور « أردشير » تعلمه بتوجه خالد إلى« الأبلة » أرسل قوات لدعمه بقيادة «قارن ابن قريانس » . فخرج « قــارن » من « المدائن » وعندما وصل إلى « المذار » بلغته الهزيمــة ومقتل « هرمز » مع وصول فلول الجند الذين هربوا من المعركة . وقال هؤلاء بعضهم لبعض (إن افترقتم لم تجتمعوا بعدها أبــداً) وعمل « قارن » على ضم فلال قوات الأهواز وفارس والسواد والجبــل وأعاد تنظيم قواتــه ،

---

(١) وكان من بين الغنائم قلنسوة هرمز التي تبلغ قيمتها مائة الف ، وكان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قدر أحسابهم في عشائرهم ، فمن تم شرفــه فقيمة قلنسوته مائة الف ، وكانت مفصصة بالجوهر ، فلما وصلت القلنسوة إلى المدينة ، نقلها أبو بكر إلى خالد بن الوليد .

(٢) الثني : نهر في المذار ،والمذار بينها وبين البصرة أربعة أيام إلىالشمال بالقرب من واسط ، وتسمى أيضاً وقعــة المذار ، ويومئذ قال الناس : صفر الأصفار ، فيه يقتل كل جبار ، على مجمع الأنهار . الطبري ٣/٣٥١ .

وتعاهد الجميع على الصمود والقتال ، وأخذوا يرددون (هذا مدد الملك ، وهذا قارن ، لعـــل الله يديلنا ويشفينا من عدونا وندرك بعض مـــا أصابوا منا) وأقام « قارن » معسكره في « المذار » وسلم قيـادة مجنبتيه للقائدين « قباذ وأنو شجان » تماماً كما فعل « هرمز » من قبل . وأسرع « المثنى والمعنى » بنقل الخبر إلى « خالد » الذي أسرع بالخروج للقاء قوات خصمه على الثني (والعرب تسمي كل نهر باسم « الثني ») والتقى المسلمـون بأعدائهم ، والطرفـان في تنظيم القتال ، وكلهم حماسة للقتال ، هؤلاء الفرس يريدون النصر ثأراً لهزيمتهم ، واولئك المسلمون يبحثون عن النصر ابتغاء مرضاة ربهم . وخرج « قارن » يدعو للبراز ، فبرز له « خالد » وأبيض الركبان « معقل بن الأعشى بن النباش » فابتدراه فسبقه اليـــه معقل فقتله ، وقتل « عاصم » الأنوشجان، وقتل « عدي » قباذ، وبذلك أبيد قادة جيش الفرس منذ بداية المعركة . وقام المسلمون بهجوم حاسم ، وبعد معركة ضارية استطاع المسلمون انتزاع النصر، وانطلقوا لمطاردة أعدائهم . وأسرع فلال جيش الفرس إلى ركوب السفن . وأعاقت ميـاه النهر قوات المسلمين من مطاردتهم . وأحصى المسلمون عدد قتلى أعدائهم ، فوصل حتى ثلاثين الفـاً ممن لقوا مصرعهم فوق أرض « المذار » سوى من غرق. ولولا المياه لأتى المسلمون على آخرهم، ولم يفلت من أفلت منهم إلا عراة وأشباه عراة . وغنم المسلمون مغانم عظيمة حتى زاد سهم الفارس في يوم الثني على سهمه في ذات السلاسل . وأقـام « خالد » بالثني ، يسبي عيالات المقاتلة ومن

أعانهم وأقر الفلاحين ومن أجاب إلى الخراج من جميع الناس بعد ما دعوا ،وكل ذلك أخذ عنوة، ولكن دعوا إلى الجزاء «الخراج» فأجابوا وتراجعوا ، وصاروا ذمة، وصارت أرضهم لهم . وأقام « خالد » حامية في « الحفير » بقيادة سعيد بن النعمان ، وعلى الجزاء « سويد بن مقرن المزني » وأمره ببث عماله ، ووضع يده في الجباية ، وأقام لعدوه يتحسس أخباره .

٢ - **وقعة الولجة**[١] وصلت أنباء هزيمة قوات الفرس ومصرع « قارن » إلى الأمبراطور « أردشير » فأسرع إلى توجيه مجموعتين قتاليتين لمجابهة قوات العرب المسلمين ، المجموعة الأولى بقيادة « الأندرزغر »[٢] والمجموعة الثانية بقيادة « بهمن جاذويه » وأمره أن يعبر طريق « الاندرزغر » وأن يتبع أثره .

خرج « الاندرزغر » من المدائن سائراً حتى أتى كسكر ، ثم جازها إلى « الولجة » ، وخرج « بهمن جاذويه » في أثره ، وأخذ غير طريقه ، فسلك وسط السواد ، مخالفاً بذلك تعليمات

---

(١) الولجة : مما يلي كسكر من البر ، وفيها وقعت معركة الولجة في صفر من سنة اثنتي عشرة للهجرة (اوائل أيار — مايو ٦٣٣ م) ولم يكن بينها وبين موقعة الثني أكثر من أيام . أما « كسكر » فهي كورة « ناحية» واسعة قصبتها « عاصمتها » مدينة واسط وهي بين البصرة والكوفة .

(٢) الاندرزغر : قائد فارسي . وهو من مواليد السواد وأصله من الغرباء وليس من الفرس . ولم يكن من مواليد المدائن ، ولا نشأ بها . وكان قبل ذلك على « فرج » — ولاية — خراسان . الطبري ٣/٣٥٣ .

الامبراطور « أردشير » وحشد « الاندرزغر » كل مقاتل ما بين « الحيرة وكسكر » من عرب الضاحية والدهاقين . فعسكروا إلى جانب عسكره بالولجة ، فلما اجتمع له ما أراد واستتم أعجبه ما هو فيه ، وقرر السير إلى « خالد » . ولما بلغ « خالد » وهو « بالثني » خبر الأندرزغر ونزوله الولجة ، نادى بالرحيل ، وتقدم إلى من خلف في أسفل دجلة وأمرهم بالحذر وقلة الغفلة وترك الاغترار . وخرج سائراً في الجنود نحو « الولجة » حتى ينزل على « الأندر زغر » وجنوده ومن ناصره واجتمع اليه .

استطلع « خالد » معسكر أعدائه ووضع لهم كميناً في ناحيتين عليهم « بسر بن أرهم » و « سعيد بن مرة العجلي » وبدأ بعد ذلك بشن الهجوم ، واقتتل المسلمون وأعداءهم قتالاً شديداً ، حتى ظن الفريقان أن الصبر قد فرغ ، واستبطأ « خالد » كمينه ثم ظهرت قوات الكمين في وجهين ، فانهزمت صفوف الأعاجم وولوا ، فأخذهم « خالد » من بين أيديهم والكمين من خلفهم ، فلم ير رجل منهم مقتل صاحبه ومضى « الاندرزغر » في هزيمته فمات عطشاً . وسار « خالد » في الفلاحين بسيرته ، فلم يقتلهم ، وسبى ذراري المقاتلة ومَن أعانهم . ودعا أهل الأرض إلى الجزاء والذمة ، فتراجعوا . وبارز « خالد » في بداية هذه المعركة أحد أبطال الفرس ممن يطلق عليهم لقب « حضرمرد » أي الفارس الذي يعادل ألف رجل ، فقتله ، ففت ذلك من عضد الفرس وأوهنهم . وأصاب « خالد » في المعركة أيضاً في أناس

من بكر بن وائل ابناً لجابر بن بجير وابناً لعبد الأسود من زعماء العرب الموالين للفرس[1].

٤ ـ خبر أليس ، وهي على صلب الفرات[2]:

لما أصاب « خالد » يوم الولجة من أصاب من « بكر بن وائل » من نصاراهم الذين أعانوا أهل فارس ، غضب لهم نصارى قومهم ، وثارت فيهم الحمية ، حمية الجاهلية ، فكاتبوا الأعاجم وكاتبتهم الأعاجم ، فاجتمعوا إلى « أليس » وعليهم « عبد الأسود العجلي » وكان أشد الناس على أولئك النصارى مسلمو بني عجل (عتيبة ابن النّهاس وسعيد بن مرة وفرات بن حيـان والمثنى بن لاحق ومذعور بن عدي). وكتب « أردشير » إلى « بهمن جاذويه » . وهو بقسيانا[3] (أن سر حتى تقدم أليس بجيشك إلى من اجتمع

(١) وقف « خالد » في بداية هـذه المعركة يحرض جنوده ويحضهم على القتال ، فقال لهم : ألا ترون إلى الطعام كرفغ « أكوام » التراب . وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عز وجل ، ولم يكن إلا المعاش ، لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولى الجوع والاقلال من تولاه ممن اثاقل عما أنتم عليه) تاريخ الطبري ٣/٣٥٤ .

(٢) أليس : موضع في أول أرض العراق من ناحية، وهي قرية من قرى الأنبار . وهي تبعد حوالي عشرة أميال عن الولجة . وفيهـا وقعت معركة حاسمة بين المسلمين وأعدائهم في نهاية شهر صفر من السنة الثانية عشرة للهجرة (منتصف أيار ـ مايو ـ ٦٣٣ م) .

(٣) نظم الفرس قواتهم لمجابهة الطوارىء. فكانت كل يوم تقوم بهذه المهمة قوة تحت قيادة قائد من القادة وكان « بهمن جاذويه » هو قائد قوة الطوارىء في اليوم الذي وجه اليه الامبراطور « أردشير » رسالته ، وكلفه بمجابهـة قوة « خالد » .

بها من فارس ونصارى العرب) . وتوجه « بهمن جاذويه » بعد أن دفع مقدمة له بقيادة « جابان » وأمره بالحث والسرعة وقال له: (كفكف نفسك وجندك من قتال القوم حتى ألحق بك إلاأن يعجلوك) فسار «جابان» نحو «أليس» وانطلق «بهمن جاذويه» إلى أردشير ، ليحدث به عهداً ، وليستأمره فيما يريد أن يشير به ، فوجده مريضاً ، فعرج عليه ، وأخلى « جابان » بذلك الوجه ، فمضى « جابان » حتى وصل « أليس » فنزل بها ، واجتمعت اليه المسالح التي كانت بإزاء العرب [١] . وانضمت إلى قوات « جابان » بعض القبائل العربية (منها عبد الأسود في نصارى العرب من بني عجل «بكر» وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة ، وكان جابر بن بجير نصرانياً فساند عبد الأسود) . وكان « خالد » قد علم بتجمع (عبد الأسود وجابر وزهير فيمن التف حولهم) فأسرع للقائهم وهو لا يشعر بدنو « جابان » وليست لخالد همة إلا من تجمع له من عرب الضاحية ونصاراهم ، فأقبل ، فلما طلع على « جابان بأليس » قالت الأعاجم » لجابان » : (أنعاجلهم ، أم نغدي الناس ولا نريهم أنا نحفل بهم ، ثم نقاتلهم بعد الفراغ - من طعام الغداء ؟)

---

(١) المسالح : هي مراكز المراقبة المتقدمة ، كانت تنتشر على حدود الامبراطوريات « الفارسية والبيزنطية » بمهمة مراقبة كل تحرك للاعداء ، والاشتباك مع الهجمات الصغرى والانسحاب والتجمع عند مجابهة هجوم كبير ، وكانت هذه المسالح تتمركز في قلاع وحصون قوية تضمن لها الحماية لفترة محدودة .

فقال جابان : (إن تركوكم وتهاونوا بكم فتهاونوا ، ولكن ظني بهم أنهم سيعجلونكم، ويعجلونكم عن الطعام)فعصوه ، وبسطوا البسط : ووضعوا الأطعمة ، وتداعوا اليها ، وتوافوا عليها .فلما انتهى « خالد »اليهم ، وقف ، وأمر بحط الأثقال ، فلما وضعت توجه اليهم ، ووكّل « خالد » بنفسه حوامي يحمون ظهره ، ثم بدر أمام الصف ، فنادى : أين أبجر ؟ أين عبد الأسود ؟ أين مالك بن قيس؟ فنكلوا عنه جميعاً إلا « مالكاً » فبرز له ، فقال له خالد : يا ابن الخبيثة ، ما جرأك عليّ من بينهم ، وليس فيك وفاء ! فضربه فقتله . وأجفل الأعاجم عن طعامهم قبل أن يأكلوا ، فقال جابان : ألم أقل لكم يا قوم ! أما والله ما دخلتني من رئيس وحشة قط حتى كان اليوم ، فقالوا حيث لم يقدروا على الأكل تجلداً . فدعها حتى نفرغ منهم ونعود اليها : فقال «جابان» : (وأيضاً أظنكم والله لهم وضعتموها وأنتم لاتشعرون فالآن أطيعوني ، سموها فان كانت لكم ، وانتصرتم ، كان أهون هالك . وإن كانت عليكم ، وهزمتم ، كنتم قد صنعتم شيئاً ، وأبليتم عذراً) فقالوا : لا – اقتداراً عليهم .

نظم « جابان » قواته للمعركة ، وأسند قيادة مجنبتيه إلى « عبد الأسود – وأبجر » أما « خالد » فحافظ على تعبئة قواته وفق التنظيم الذي اتبعه في معاركه السابقة . وبدأت المعركة التي أظهر فيها الفرس وأنصارهم شجاعة فائقة،وصبروا

صبراً شديداً على ما كانوا يَتوقعونه من قدوم « بهمن جاذويه » لدعمهم . ومقابل ذلك صمد المسلمون وقاتلوا بعنـــاد كبير ، واشتدت حدة القتال، فقال خالد (اللهم إن لك عليّ ان منحتنا أكتافهم ألا أستبقي منهم أحداً قدرنا عليه ، حتى أجري نهرهم بدمـــائهم) ثم إن الله عز وجل كشفهم للمسلمين ، ومنحهم أكتافهم ، فأمر « خالد » مناديه فنادى في النـــاس : الأسر الأسر ! لا تقتلوا إلا من امتنع ، فأقبلت الخيول بهم أفواجـاً مستأسرين يساقون سوقاً . وقد وكل بهم رجالاً يضربون أعناقهم في النهر ، ففعل ذلك بهم يوماً وليلة ، وطلبوهم الغد وبعد الغـد حتى انتهوا إلى النهرين[1] ومقدار ذلك من كل جوانب « أليس » فضرب أعناقهم ، وقال له « القعقاع » وأشبـــاه له : لو انك قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤهم . إن الدماء لا تزيد على أن ترقرق منذ نهيت عن السيَلان، ونهيت الأرض عن نشف الدماء، فأرسل عليهـا الماء تَبَرّ بيمينك) وقد كان صد الماء عن النهر فأعاده ، فجرى دماً عبيطاً (طرياً) فسمي « نهر الدم » لذلك الشأن إلى اليوم . وبلغ عـــدد من تم قتلهم ثمانيــة عشر ألفاً أو يزيدون في ثلاثة أيام، وبلغت قتلاهم من « أليس » سبعين ألفاً

---

(١) لم يكن نهراً ، وإنما مجرى جافاً يقال له « الخسيف » وكان بين نهر الخسيف ونهر الفرات ثلاثة أميال ، وهو فرع من الفرات وعلى ضفته اليمنى . ويظهر أن نهر « الخسيف » كان جدولاً للري بدلالة تحويل المياه اليه عنـــد الحاجة ، لأعمال الري ، ولتشغيل الطواحين المائية لطحن الدقيق .

جلهم من « أمغيشيا »[1] .

لما فرغ « خالد » من وقعة « أليس » نهض فأتى « أمغيشيا» وقد أعجلهم عمّا فيها ، وقد جلا أهلها ، وتفرقوا في السواد ، ومن يومئـــذ صارت السكرات « الفعلة » في السواد . فأمر « خـالد » بهدم « أمغيشيا » وكل شيء كان في حيزها ، وكانت مصراً كالحيرة . وكان نهر « فرات بادقلي » ينتهي اليها ، وكانت « أليس » من مسالحها . فأصابوا فيهـــا ما لم يصيبوا مثلهقط . حتى قيل انه لم يصب المسلمون فيما بين ذات السلاسل وأمغيشيا مثل شيء أصابوه في أمغيشيا ، بحيث بلغ سهم الفارس الفـــاً وخمسمائة سوى النفل الذي نفله أهل البـلاد . وبعث « خالد » بالخبر مع رجل يدعى « جندلاً » من بني عجل ، وكان دليلاً صارماً ، فقدم على أبي بكر بالخبر ، وبفتح أليس ، وبقدر الفيء وبعدة السبي ، وبمـــا حصل من الأخماس ، وبأهل البلاء من

(١) ما ان انتهت المعركة باجتيـــاح المسلمين لمعسكر الفرس ، ورجع الفرسان من المطاردة حتى وقف خالد على الطعام الذي كان رجال الفرس قد أعدوه لغدائهم، وقال لهم :«قد نفلتكموه فهو لكم» وكان رسول اللهصلىاللهعليه وسلم إذا أتى على طعام مصنوع نفله . فقعـــد عليه المسلمون لعشائهم بالليل . وجعل من لم ير الأرياف ولا يعرف الرقاق يقول : ما هـــذه الرقاق البيض! وجعل من قد عرفها يجيبهم ، ويقول لهم مازحـاً : هل سمعتم برقيق العيش ؟ فيقولون نعم . فيقول : هو هـــذا ، فسمى الرقاق . وكانت العرب تسميه « القرى » .

الناس[1] فقال أبو بكر – رحمه الله – حين بلغه ذلك : « يامعشر قريش – عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله – أعجزت النساء أن ينسلن مثل خالد »[2] .

٥ – فتح الحيرة :

كان حاكم الحيرة « مرزبانها » منذ أيام كسرى وحتى أيام الفتح قائد يسمى « الآزاذبة » وكان هذا قد بلغ نصف الشرف (قيمة قلنسوته خمسين ألفاً) وفي هذه المرتبة كان الحكام لا يمد بعضهم بعضاً بالقوات إلا باذن الملك ، فلما أخرب « خالد » مدينة « أمغيشيا » وعاد أهلها فعلة وعمال زراعيين « سكرات » لأقطاعيي القرى « ودهاقينها » علم « الآزاذبة » أنه غير متروك، فأخذ في أمره وتهيأ لحرب « خالد » ودفع بمجموعة قتالية بقيادة ابنه ، ثم سار ببقية القوة في أثر المقدمة ، وأقام معسكره خارج « الحيرة » وأمر ابنه بسد الفرات .

---

(١) لما قدم « جندل » على « أبي بكر » رأى فيه الصرامة والثبات والخبرة . قال ما اسمك ؟ قال : جندل . قال : ويهاً جندل !

نفس عصام سودت عصاماً وعودته الكر والاقداما

وأمر له بجارية من ذلك السبي ، فولدت له .

(٢) الخراذيل : قطع اللحم، واحدة خرذولة . وفي بعض المصادر عوضاً عن « أن ينسلن » أن ينشؤوا وفي التصويبات « ينشئن » تاريخ الطبري ٣/٣٥٩ والكامل - ابن الأثير ٢/٢٦٤ . وقال « خالد » بعد انتهاء معركة « أليس » : (لقد قاتلت يوم مؤتة فانقطع في يدي تسعة أسياف وما لقيت قوماً كقوم لقيتهم من أهل فارس ، وما لقيت من أهل فارس قوماً كأهل « أليس » . تاريخ الطبري ٣/٣٦٧ .

كان « خالد » قد جمع ما وقع في قبضته من السفن بهدف استخدامها لتطوير حرب الحركة، وحمل المشاة في السفن ومعهم الغنائم والامدادات والمواد التموينية، ولم تتجاوز السفن في سيرها مسافة طويلة حتى بوغت «خالد» بالسفن وهي جانحة بسبب انقطاع المياه، وارتاع الجند، فقال الملاحون: (إن أهل فارس قد فجروا الأنهار ، وعملوا على تحويلها ، فلا يأتينا الماء إلا بسد الأنهار) فأسرع « خالد » بقيادة قوة الفرسان صاعداً مع مجرى النهر في اتجاه الحيرة ، واصطدم عند وصوله إلى « فم العتيق » بقوة من الفرسان ، وكان ظهور « خالد » مباغتـــاً بحيث لم تتمكن قوة فرسان الفرس من استخدام اسلحتها فأبادهـا « خالد » ثم سار من فوره يسبق الأخبار في اتجـاه « ابن الآزاذبة » حتى يلقاه وجنده على « فـم فرات بادقلي » فاقتتلوا ، ونجح المسلمون في ابادتهم ، وفجر « خالد » نهر الفرات ، وسد الأنهار ، وعاد الماء ليسلك سبيـــله . وتابعت سفن المسلمين طريقها نحو الحيرة . وانطلق « خالد » حتى ينزل بين « الخورنق والنجف » وعندما وصل « خالد » إلى الخورنق، كان « الآزاذبة » قد قطع الفرات هارباً من غير قتال، لا سيما وقد بلغه موت « أردشير » ومصاب ابنه . وأعاد «خالد» تجميع قواته وتنظيمها ، وانطلق لاحتلال معسكر « الآزاذبة » بين « الغريين والقصر الأبيض » وكان أهل « الحيرة » من العرب قد تحصنوا في قصور أربعة ، فشكل « خالد » أربعة مجموعات قتالية كلفها بالمهمات التالية :

١ – المجموعة الأولى بقيـــادة ضرار بن الأزور ومهمتها محاصرة القصر الأبيض وفيه « إياس بن قبيصة الطائي ».

٢ – المجموعة الثانيـــة بقيادة ضرار بن الخطاب ومهمتها محاصرة قصر العدسيين وفيه « عدي بن عدي المقتول ».

٣ – المجموعة الثالثة بقيادة ضرار بن مقرن المزني ومهمتها محاصرة قصر بني مازن وفيه « ابن أكال ».

٤ – المجموعة الرابعـــة بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني ومهمتها محاصرة قصر ابن بقلية وفيه « ابن عبد المسيح ».

وطلب خالد إلى قادة المجموعات الاتصال بقادة المقاومـــة واعطاءهم المهلة الضرورية للتفكير وتجنب الحرب ، وكانت المهلة المحددة هي يوم واحد . وحذر « خالد » قادته من غدر أعدائهم بقوله : « لا تمكنوا عدوكم من آذانكم ، فيتربصوا بكم الدوائر ، ولكن ناجزوهم ، ولا تردوا المسلمين عن قتال عدوهم ».

أصبح أهل القصور ، فوجـدوا قوات المسلمين وقد ضربت نطاقاً محكماً من الحصار حولهم . وكان « ضرار بن الأزور » هو أول قائد اشتبكت قواته بقوات « إياس بن قبيصة الطائي » ، فقد عمل « ضرار » على إنذار القوم ودعوتهم إلى إحدى ثلاث: الإسلام أو الجزاء أو المنابذة والحرب ، ومضت فترة الإنذار ، وأظهر أهـــل القصر تصميمهم على الحرب « وتنادوا » عليكم الخزازيف . فقال ضرار : تنحوا لا ينالكم الرمي ، حتى ننظر

في الذي هتفوا به . فلم يلبث أن امتلأ رأس القصر من رجال متعلقي المخالي ، يرمون المسلمين بالخزازيف – وهي كرة من الخزف – فقال « ضرار » : ارشقوهم ، فدنوا منهم فرشقوهم بالنبل ، وتراجع رجال القصر عن رؤوس الحيطان . ثم بثّوا غارتهم فيمن يليهم . وصبّح أمير كل قوم من قادة المسلمين بمثل ما جابه « ضرار » أعداءه . فافتتحوا الدور والديرات . وأكثروا القتل . فنادى الرهبان والقسس : « يا أهل القصور ما يقتلنا غيركم » فنادى أهل القصور : « يا معشر العرب ، قد قبلنا واحدة من ثلاث ، فادعوا بنا وكفوا حتى تبلغونا خالدا » وخرج حكام القصور ، ووقفوا بين أيدي قادة المسلمين ، كل قائد قصر مع قائد القوة المكلفة بحصاره والهجوم عليه . وكان أول من طلب الصلح « عمرو بن عبد المسيح »[1] فأرسلهم الرؤساء إلى خالد، مع كل رجل منهم ثقة ليصالح عليه أهل الحصن. فخلا « خالد » بأهل كل قصر منهم دون الآخرين . وبدأ بصاحب « عدي » وقال : ويحكم ! ما أنتم ؟ أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ! أو عجم ؟ فما تنقمون من الانصاف والعدل ! فقال له عدي : بل عرب عاربة وأخرى متعربة ، فقال : لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا أمرنا ، فقال له عدي : ليدلك على ما نقول إنه ليس لنا لسان إلا بالعربية . فقال :

---

(١) عمرو بن عبد المسيح ابن قسيس بن حيان بن الحارث وهو « بقيلة » وانما سمي « بقيلة » لأنه خرج على قومه في بردين أخضرين . فقالوا : يا جار ما أنت إلا بقيلة خضراء . وتتابعوا على ذلك .

صدقت . وقال : اختاروا واحدة من ثلاث : أن تدخلوا في ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمتم في دياركم ، أو الجزية ، أو المنابذة والمناجزة ، فقد أتيتكم والله بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة . فقال : بل نعطيك الجزية . فقال خالد : تباً لكم ، ويحكم ! إن الكفر فلاة مضلة ، فأحمق العرب من سلكها ، فلقيه دليلان : أحدهما عربي فتركه واستدل الأعجمي .

كان اللقاء المثير الثاني هو لقاء « خالد » مع « عمرو بن عبد المسيح » إذ كان قومه يحتكمون اليه في أمورهم ويتقدمون اليه لقضاء حوائجهم ، فلما دخل على « خالد » قال له : كم أتت عليك من السنين؟ قال : مِئوسنين . قال : فما أعجب ما رأيت؟ قال رأيت القرى منظومة ما بين دمشق والحيرة ، تخرج المرأة من الحيرة فلا تزود إلا رغيفاً . فتبسم خالد ، وقال : (هل لك من شيخك إلا عَمَلُه)[1] خرفت والله يا عمرو ! ثم أقبل « خالد » على أهل الحيرة ، فقال : ألم يبلغني أنكم خبثة خدعة مكرة ! فمالكم تتناولون حوائجكم بخرف لا يدري من أين جاء! فتجاهل له « عمرو ». وأحب أن يريه من نفسه ما يعرف به عقله، ويستدل به على صحة ما حدثه به، فقال: وحقك أيها الأمير ، إني لأعرف من أين جئت ؟

---

(١) ويقال « عقله » بدلاً من عمله ، والشطر الثاني من بيت الشعر هذا : (إلا رسيمة وإلا رملة) مجمع الأمثال ٢/٢٨٩ وتاريخ الطبري ٣/٣٦٢ .

قال « خالد » : مـــن أين جئت ؟ وأجابه « عمرو » : أقرِب أم أبعِدْ ؟ قال خالد : ما شئت . وأجابــه عمرو : من بطن أُمي . وقال له « خالد » : فأين تريد ؟ وأجابه : أمامي. قال : وما هو : وأجاب عمرو : الآخرة . قال خالد : فمن أين أقصى أثرك ؟ قال عمرو : من صلب أبي . قـــال خالد : ففيم أنت ؟ وأجابه عمرو : في ثيابي . قال خالد : أتعقل ؟ وأجاب عمرو : إي والله وأقيد .

وجد خالد أنه أمام رجل داهية ، وقد أكسبته السنون خبرة واسعةوصلابة وقسوة، فوجه اليه حديثه بمايشبه الاعتذار عن موقفه منه وتجاهله له ، فقال له : « قتلت أرض جاهلها ، وقتل أرضاً عالمها والقوم أعلم بما فيهم !»فقال عمرو:«أيها الأمير! النملة أعلم بمـا في بيتها من الجمل بمـا في بيت النملة »[1] . وقال خالد : أسلم أنت أم حرب ؟ قال : بل سلم . قال : فما هــذه الحصون التي بيننـا ؟ وأجاب عمرو : للسفيه نحبسه حتى يجيء

---

(١) لم يكن « عمرو » - أو « ابن بقيلة » راضياً عن الخضوع للمسلمين ، وقد عبر عن ذلك بقوله :

أبعد المنذرين أرى سواماً	تروح بالخورنـــق والسدير
وبعد فوارس النعمان أرعى	قلوصاً بـــين مرة والحفير
فصرنا بعد هلك أبي قبيس	كجرب المعز في اليوم المطير

الحليم فينهاه . ثم قال خالد : إني أدعوكم إلى الله ، وإلى عبادته وإلى الإسلام، ورفض« عمرو » وفضل الجزية ، فصالحهم خالد، على تسعين ومائـة ألف درهم ، ولكن ، وقبل التوقيـع على « الصلح » تقدم اعرابي اسمه « شويل » إلى « خالد » طالبـاً تزويجه « كرامة بنت عبد المسيح » وفاء لوعد الرسول ﷺ الذي كان قد وعد « شويل » تزويجه « كرامة » عند فتح الحيرة وأحضر « شويل » شهوده . ولم يجد خالد أمـــامه مفر من إدخـال شرط الزواج بين « شويـــل » و « كرامة » كبند أساسي في الاتفاقية ، ووافقت « كرامة »[1] وتم ابرام الصلح، ونصه :

تقسمنا القبائل مـــن معد	علانيـــة كأيسار الجزور
وكنا لا يرام لنـا صريم	فنحن كقرة الضرع الفخور
نؤدي الخرج بعد خراج كسرى	وخرج من قريظة والنضير
كذاك الدهر دولتـه سجال	فيـوم من مساءة أو سرور

(الكامل في التـــاريخ ٢/٢٦٦ - ٢٦٧ وتاريخ الطبري ٣/٣٥٤ و ٣٦٢-٣٦٣) .

(١) فزع أهل « كرامة » وأهل قريتها مما وقعت فيه ، وأعظموا الخطر، فقالت : لا تخطروه ، ولكن اصبروا، ما تخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة! فانما هذا رجل أحمق ، رآني في شبيبتي فظن أن الشباب يدوم . فدفعوها إلى خالد ، فدفعها خالد اليه ، فقالت : مـــا أربك إلى عجوز كما ترى ! فادني ، قال لا — إلا على حكمي ، قالت : فلك حكمـك مرسلاً . فقال : لست لأم شويل إن نقصتك من الف درهم! فاستكثرت ذلك لتخدعـه، ثم أتته بها.←

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما عاهد عليه « خالد بن الوليد »عدياً وعمراً ابني عدي وعمرو بن عبد المسيح ، وإياس بن قبيصة ، وحيرى بن أكال . وهم نقباء أهل الحيرة ورضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم به ، عاهدهم على تسعين ومائة الف درهم ، تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا: رهبانهم وقسيسهم – إلا من كان منهم على غير ذي يد حبيساً عن الدنيا تاركاً لها، أو سائحاً تاركاً للدنيا، وعلى المنعة ، فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم ، وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة . وكتب في شهر ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة ، ودفع الكتاب اليهم [١] .

كان انتصار خالد في فتح « الحيرة » انتصاراً رائعاً[٢]

← فرجعت إلى أهلها، فتسامع الناس بذلك فعنفوه ، فقال: ما كنت أرى أن عدداً يزيد عن ألف. كانت نيتي غاية العدد . وعلم خالد ، فقال: أردت أمراً وأراد الله غيره ، نأخذ بما يظهر وندعك ونيتك كاذباً كنت أو صادقاً (تاريخ الطبري ٣/٣٦٦ وابن الأثير ٢/٢٦٧ .

(١) قال القعقاع في فتح الحيرة بعضاً من الشعر يظهر الحالة التي كان عليها المسلمون يوم الفتح – الطبري ٣/٣٦٥ .

(٢) ولعل أكبر انتصار ، هو الانتصار على الذات ، فقد جابه خالد قوما أصلهم من العرب ، وهم على قدر متعادل من الصمود ، ولكن الايمان الذي تميز به خالد وجند المسلمين قد ساعدهم على التفوق. ولعل ما حدث لخالد في نهاية حديثه مع « عمرو بن عبد المسيح – ابن بقيلة – أفضل برهان على ذلك ،فقد حضر « عمرو »لمقابلة خالد ومعه خادمه الذي يمينه ، وعندما ←

وكانت بقيـة المناطق تنتظر ما سينتهي اليه الصراع ، وعندما أنجز «خالد» الصلح ، قام فصلى صلاة الفتح ثماني ركعات لا يسلم فيهن ، وانتشرت أخبـار الصلح بسرعة ، فخرج « صلوبا بن نسطونا » صاحب «قس الناطف» حتى دخل على خالد عسكره، فصالحه على « بانقيا وباروسما » وضمن له ما عليهما وعلى أرضيهما من شاطىء الفرات جميعاً . وكانت شروط الصلح مماثلة لشروط صلح الحيرة » وبمقدار عشرة آلاف دينـار . وتبع ذلك صلح آخر مع « دهاقين الملطاطين » – مـا بين الكوفة والحيرة – وفعل مثل ذلك أيضاً (صلوبا بن بصهبري ونسطونا) فصالحوه على مـا بين الفلاليج إلى هرمز – جرد . وكانت شروط الصلح متشابهة ، مع اختلاف في قيمة الجزاء بحسب قدرة المنطقة التي تتم المصالحة عليها .

انصرف «خالد» لتنظيم الأقاليم التي تم فتحها ، ووجه عماله، وأقام مخافر أو مراكز المراقبـة « المسالح كما كانوا يسمونها » على امتداد الحدود مع بلاد الفرس . وعيّـن أفضل قادته لحماية الثغور (وأمرهم بالغارة والالحـاح) فتجاوزت قوات المسلمين

← أراد «عمرو» الانصراف لمحخالدمعالخادم كيساً صغيراً ، فاختطفه منه ونثر ما فيه على راحته ، وسأل « عمرو » : ما هذا ؟ فأجابه : هذا وأمانة اللهسم ساعة؟ وقال له خالد : لم تحتقب السم؟. قال : خشيت أن تكونوا على غير ما رأيت ، وقد أتيت على أجلي ، والموت أحب إلي من مكروه أدخله على قومي وأهل قريتي . وتذكر المصادر التاريخيـة ان خالد تناول السم فلم يصبه أذى او مكروه . (ابن الأثير ٢/٢٦٦) .

نهر الفرات ، وانتشرت حتى وصلت نهر دجلة . وفقد «الفرس» كل سيطرة لهم على الاقليم الممتد ما بين نهري الفرات ودجلة ، وجعل « خالد » من الحيرة مقراً لقيادته ، ومنح قواته الفرصة المناسبة للراحة ، واعادة التنظيم استعداداً للمرحلة التالية :

٦ – فتح الأنبار:[١]

أنجز « خالد » واجبه ، واقتحم الحيرة . وأصبح مرغماً على التوقف بانتظار انتهاء « عياض بن غنم » من إكمال الواجب المحدد له ، وتعثرت عمليات « عياض » وطال انتظار « خالد » حتى قارب السنة مما دفع إلى القول بأن تلك السنة هي (سنة نساء) . وضاق بعض الجند في جيش « خالد » ذرعاً بهذه المطالة[٢] وحاولوا استثارته لمتابعة الأعمال القتالية ، فكان رد « خالد »: « الصبر ، فاني انما أريد أن أستفرغ المسالح التي أمر بها عياض

---

(١) الأنبار ـ مدينة على الفرات في غربي بغداد ، ولا يوجد الآن من الأنبار سوى بعض الروابي التي تقع على بعد ثلاثة أميال شمال غرب« الفلوجة» الحالية ، وحوالي ميل من الفرات . وكان الفرس يسمون « الأنبار » باسم « فيروز سابور » .

(٢) كان ممن شكا « لخالد » ضيقه بهذا التوقف مقاتل اسمه « عبد الله ابن وثيمة »الذي زعم ان الذباب قد أنهكه ، وقال « بن وثيمة » شعراًيصف ضيقه بالتوقف عن القتال :

لقد حبست في كربلاء مطيتي	وفي الغين حتى عاد غثاً سمينها
اذا زحلت من قبرك رجعت له	لعمر أبيها إنني لأهينها
ويمنعها من ماء كل شريعة	رفاق من الذبان زرق عيونها

فتسكنهـا العرب ، فتأمن جنود المسلمين أن يؤتوا من خلفهم ، وتجيئنا العرب أمنـة وغير متعتعة ، وبذلك أمرنا الخليفة . ورأيه يعدل نجدة الأمة » .

كانت « الأنبار » هدفاً قريباً من « خالد » وكانت مميزة بحصونها وحولها خندق يحيط بهـا ، وكانت تقيم بها حامية « فارسية » بقيادة « شيرذاذ » حاكم « ساباط » وكان قائداً حكيماً قيل فيه (انه أعقل أعجمي ، وأفضل الحكام في كفاءته القيادية وأقربهم إلى قلوب الناس) وقد قدر « شيرذاذ » الموقف بشكل جيد ، فوجد أن الحامية الفارسية ضعيفة ، وإنه ليس باستطاعته الاعتماد على قوة العرب الذين يقيمون في المدينة ، بعد تلك المعارك الظافرة التي أحرزتها قوات المسلمين بقيادة « خالد ابن الوليد » حتى انه فكر في التوجه إلى « خالد » لعقد صلح معه ، وقال : (والله لئن لم يكن خالد مجتازاً لأصالحنه) .

في منتصف ربيع الثاني – عام ١٢ هـ – (نهاية حزيران – يونيو – ٦٣٣ م) غادر « خالد » الحيرة، ودفع مقدمة لقواته بقيادة « الأقرع بن حابس التميمي »[1] ومضى بجيشه من الفرسان

---

(١) الأقرع بن حابس التميمي : من حكماء قومـه ، أسلم قبل الفتح ، واشترك مع الرسول صلى الله عليه وسلم في فتح مكة وحنيناً والطائف. وعندما قدم وفد تميم بعد الفتح، كان الأقرع مع هذا الوفد ، وكان صلباً شهد مع خالد اليمامة وأيام العراق وفتح الأنبار ، ومـات شهيداً في أرض خراسان في زمن « عثمان بن عفان »، ويقال انه قتل في اليرموك. أسد الغابة ١/١٠٧ والاصابة ١/٥٨ والاستيعاب ١/١٠٣ .

حتى وصل « الأنبار » فوجد أن أهلها قد تحصنوا واستعدوا للقتال ، فقام بجولة استطلاعية حول الخندق ، وأمر جنده بالاشتباك مع خصومهم ، وخلال الاشتباك الأولي ظهر لخالد ضعف الكفاءة القتالية لخصومه ، فتقدم إلى « رماته » وأوصاهم بقوله : (إني أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب ، فارموا عيونهم ولا توخوا غيرها) فرموا رشقاً واحداً ، ثم تابعوا ، ففقىء ألف عين يومئذ ، فسميت تلك الوقعة (ذات العيون) وتصايح القوم : ذهبت عيون أهل الأنبار ! فقال شيرذاذ : ما يقولون ؟ فسر له فقال : آباذ آباذ (وهي كلمة فارسية معناها بارك الله) . فراسل خالداً في الصلح على شروط رفضها خالد ولم يقبل بها ، واستمرت المعركة .

تقدم خالد إلى أضيق مكان في الخندق ، وأمر بنحر الابل الضعيفة ، ثم رمى بها في الخندق وشكل بها جسراً يعبره المقاتلون . واقتحم المسلمون الخندق ، واسرع القوم إلى حصنهم ، وارسل « شيرذاذ » خالداً في الصلح على ما أراد . فقبل «خالد» على أساس السماح لشيرذاذ بمغادرة الأنبار مع مفرزة من الفرسان المرافقة له ، وألا يتعرض لهم أحد بسوء ، وبشرط ألا يحملوا معهم من المتاع والأموال شيء فخرج شيرذاذ حتى وصل إلى مقر قيادة قائده « بهمن جاذويه » .

استقر خالد في الأنبار ، واستعاد أهل الأنبار ثقتهم بالوضع الجديد ، فأخذوا في الخروج لممارسة أمور حياتهم العادية . ورأى

خالد أن أهل الانبار يكتبون بالعربيــة ويتعلمونها ، فسألهم : ما أنتم ؟ فقالوا : قوم من العرب ، نزلنــا إلى قوم من العرب قبلنا ، فكانت أوائلهم نزلوا أيام « بختنصر » حين أباح العرب ، ثم لم تزل عنها ــ فقال مما تعلمتم الكتاب ؟ فقالوا : تعلمنا الخط من إياد ، وأنشدوه قول الشاعر :

قومي إيادٌ لو أنهم أمم   أو لو أقاموا فتهزل النعم

قومٌ لهم باحة العراق إذا   ساروا جميعاً والخط والقلم

انصرف « خالد » لاقامــة دعائم المجتمع الإسلامي ، وبدأ بأهل « البوازيج » وبعث اليه أهل « كلواذي »[1] ليعقد الصلح معهم ، فكاتبهم وأصبحوا عوناً للمسلمين فيما وراء دجلة .

٧ ــ عين التمر :[2]

كانت « عين التمر » هي الهدف التالي « لخالد » . وقد تجمع فيها جمع عظيم من العرب يضم قبائل من النمر وتغلب وإيــاد

---

(١) البوازيج : بلد قرب تكريت ، على فـم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة ، وأصبحت تابعة للموصل. أما كلواذي : فكانت قرب بغداد وبينهما فرسخ واحداً ، معجم البلدان ٢/٢٩٧ و٧/٢٧٦ .

(٢) عين التمر : بلدة قريبة من الأنبار ــ غربي الكوفة قرب موضعيقال له (شفاثا) ولا تزال عين التمر تحمـل هذا الاسم حتى اليوم ، وفيهـا وقعت معركـة خالد في منتصف جمادى الأولى ١٢ هـ (نهايـة تموز ــ يوليو ــ ٦٣٣ م) .

ومن ناصرهم وكلهم بقيـــادة « عقة بن عقة » كما تجمع في « عين التمر » أيضاً جيش قوي من الفرس بقيادة « مهران بن بهرام جوبين » ، وقد توقع هؤلاء جميعاً قيام « خالد » بهجوم مباغت فأخذوا في الاستعداد لمجابهته . وقال عقة لمهران : « إن العرب أعلم بقتال العرب ، فدعنا وخالداً » وأجابه مهران : « صدقت لعمري لانتم أعـلم بقتال العرب ، وإنكم لمثلنا في قتــال العجم » فخدعه ، واحتمى به وقال له : « دونكموهم وإن احتجتم إلينا أعنّاكم » فلما مضى نحو خالد : قالت له الأعاجم : « ما حملك أن تقول هذا القول لهذا الكلب ! » فقال : « دعوني فاني لم أرد إلا مــا هو خير لكم وشر لهم ، إنه قد جاءكم من قتل ملوكــكم وفلّ حدكم ، فاتقيته بهم ، فان كانت لهم على خالد فهي لكم ، وإن كانت الأخرى لم تبلغوا منهم حتى يهنوا ويضعفوا . فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم مضعفون »[1]

أراد « عقة » إبعاد القتال عن « عين التمر » فخرج بقواته على طريق « الكرخ » وعلى ميمنته « بجير » أحد بني عتبة بن سعد بن زهير ، وعلى ميسرته « الهذيل بن عمران » وأخذ في تنظيم قواته في حين احتل « مهران » حصناً أقام فيه مع قواته الفارسية على بعد مسافة في مؤخرة قوات العرب .

وصل «خالد» إلى موقع المعركة، وكان «عقة» لا يزال منصرفاً لتنظيم قواته وتعبئتها. فنظم «خالد» قواته بسرعة، وكون مجموعة

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٣٧٦ - ٣٧٧ والكامل - ابن الأثير ٢/٢٦٩.

صغيرة لمرافقته وحمايته ، ثم قال لمجنبتيه: « اكفونا ماعنده،فإني حامل عليه »وانطلق«خالد» كالعاصفة ، وانقضّ على « عقة » فاحتضنهوأخذه أسيراً،وانهزم صفه من غيرقتال،فأكثر المسلمون فيهم الأسر ، وهرب قادة المجنبتين « بجير – و – الهذيل » .

ووصلت فلول الهاربين من جيش « عقة » وفيهم العربوالفرس حتى الحصن فاقتحموه واعتصموا به ، وجمع « مهران » جنده بسرعة وترك الحصن ، وأقبل « خالد » ومعه الاسرى وفيهم « عقة وعمرو بن الصعق » .

أدركت المقاومة أن الحصن لن يحميها من بأس المسلمين ، فأرسلوا إلى « خالد » يطلبون « الأمان » فرفض « خالد » منحهم الأمان على أنفسهم إلا إذا وافقوا على شروطه ، وسلموه حصونهم ، فوافقوا على ذلك ، ودخل خالد والمسلمون « عين التمر » فقتلوا المقاتلين وسبوا الذرية ، واحتووا كل ما ضمه الحصن[1]. وكان « عقة » و « عمر بن الصعق » أول من تمقتلهم والقاءهم على الجسر .

---

(١) وجد « خالد » في « عين التمر » منزلاً عليه باب مغلق ، فكسره ، فوجد فيه أربعين غلاماً يتعلمون الانجيل، فقال لهم : ما أنتم ؟ قالوا : رهن. فقسمهم في أهل البلاد . منهم أبو زياد مولى ثقيف ، ومنهم نصير ابو موسى ابن نصير ، ومنهم ابو عمرة جد عبد الله بن عبد الأعلى الشاعر ، وسيرين ابو محمد بن سيرين ، وحريث وعلاثة . فصار ابو عمرة لشرحبيل ابنحسنة ، وحريث لرجل من بني عباد ، وعلاثة للمعنى ، وحمران لعثمان . ومنهم عمير وابو قيس ، فثبت على نسبه من موالي أهل الشام القدماء . وكان نصيرينسب إلى « بني يشكر » وأبو عمرة إلى « بني مرة » . ومنهم ابن اخت النمر . الكامل - ابن الأثير ٢/ ٢٧٠ - والطبري ٣/ ٣٧٧ .

كان « عياض بن غنم » في هذه الفترة يجابـــه موقفاً صعباً ، فقد استطاع حصار قوات العرب من أنصار الفرس قرب «دومة الجندل » ولكن قبائــل أخرى طوقت « عياض » وسيطرت على طرق مواصلاته ، فأصبح « عيـــاض » وهو « محاصرهم ومحاصريه » . فأرسل إلى « خالد » مستغيثاً ، ووصل الكتاب وقد فرغ خالد من « عين التمر » فعجل إلى عياض بكتابه :

من خالد إلى عياض إياك أريد

لبث قليلاً تأتيك الحلائب　　يحملن آساداً عليها القاشب .

كتائب يتبعها كتائب

٨ – في دومة الجندل :[١]

أعاد « خالد » تنظيم قواته بسرعــة ، وخرج في تعبيته التي دخل فيها « عين التمر » وعلم أهل « دومة الجندل» مسيرة خالد اليهـــم فبعثوا إلى أحزابهم من « بهراء وكلب وغسان وتنوخ

---

(١) دومة الجندل : حصن وقرى بين الشام والمدينة على سبع مراحل من دمشق ، أما حصنها فهو لأكيدر بن عبد الملك ، وسميت كذلك لأن حصنها مبني بالجندل (واحدها جندلة وهي الصخر العظيم) وفيها وقعت معركة مع خالد بن الوليد في منتصف جمادى الآخرة ١٢ هـ الأسبوع الأخـــير من آب – اغسطس – ٦٣٣ م . وكانت « دومـة الجندل » إحدى المدن التجاريـة الكبيرة في الجزيرة العربيـــة لوقوعها على طريق القوافل بين الجزيرة والعراق والشام . (معجم البلدان ٤/١٠٦ – ١٠٧) .

والضجاعم »[1] وهنا حدث خلاف بين رئيسي المقاومة (أكيدر ابن عبد الملك – و – الجودي بن ربيعة ، فقال أكيدر : « أنا أعلم الناس بخالد ، لا أحد أيمن طائراً منه ، ولا أحدٌ في حرب، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلّوا أو كثروا إلا إنهزموا عنه فأطيعوني وصالحوا القوم » فأبوا عليه ، فقال : لن أمالئكم على حرب خالد ، فشأنكم وخرج « أكيدر » يريد الوصول إلى حصونه ، فاعترضته قوة من فرسان المسلمين بقيادة « عاصم بن عمرو » كان قد أرسلها « خالد » للاستطلاع وقد بلغه ما يحدث بين قوة أعدائه من تمزق ، واقتيد « أكيدر » إلى « خالد » فأمر بضرب عنقه . ومضى « خالد » حتى ينزل على أهل « دومة الجندل » . وكان النصارى الذين أمدوا أهل « دومة » من العرب محيطين بحصن « دومة » لأن الحصن لم يتسع لهم ، فجعل « خالد » « دومة » بين عسكره وعسكر عياض . ونهض « الجودي بن ربيعة » و « وديعة الكلبي » لمجابهة قوات خالد بن الوليد، وفي الوقت ذاته انطلق ابن الحدرجان وابن الأيهم لقتال « عياض بن غنم » فاقتتلوا ، وكانت معركة ضارية حاول فيها كل طرف انتزاع النصر لمصلحته . واستطاع « خالد » أخذ « الجودي » أخذاً واحتفظ به أسيراً، كما استطاع أسر « الأقرع

---

(١) وكان قد وصلهم من قبل دعم وديعة في كلب وبهراء ، ومساندة ابن وبرة بن رومانس : وأتاهم ابن الحدرجان في الضجاعم وابن الأيهم في طوائف من غسان وتنوخ . فأشجوا عياض وشجوا به . الطبري ٣/٣٧٨ .

ابن حابس » ودارت الدائرة على أعداء المسلمين . فهزم « خالد » القوات التي تجابهه ، وهزم « عياض » القوات التي تتعرض له . وهربت فلول القوات إلى حصون « دومة الجندل » فلم تتسع لهم وأغلق من في الحصن أبواب حصنهم دون أصحابهم ، فبقوا حوله حرداء ، وقال « عاصم بن عمرو » : « يا بني تميم ، حلفاؤكم كلب ، آسوهم وأجيروهم ، فإنكم لا تقدرون لهم على مثلها) ففتحوا لهم الأبواب وضموهم اليهم. ووصل « خالد » وجمع فلول القوات التي لم تنجح في دخول الحصن ، فقتلهم حتى سد بهم باب الحصن ، ودعا خالد « بالجودي » فضرب عنقه ، ودعا بالأسرى فضرب أعناقهم[1] ثم أطاف خالد بالباب ، ولم يتحرك من أمامه حتى اقتلعه واقتحم المسلمون الدومة ، فقتلوا المقاتلين ، وسبوا غير المقاتلين من النساء والأطفال . وعندما أنهى خالد عملياته أقام في الدومة فترة قصيرة ، ثم رجع منها إلى قاعدة عملياته في الحيرة[2] .

---

(١) قام عاصم والأقرع وبني تميم بالوساطة لحماية بني كلب ، وقالوا لخالد : قد آمناهم ، فأطلقهم لهم خالد ، وقال : مالي ولكم ! أتحفظون أمر الجاهلية وتضيعون أمر الاسلام ! فقال له عاصم : لا تحسدهم العافية ، ولا يحوزهم الشيطان – أي لا يخالطهم الشيطان – .

(٢) عندما علم أهل الحيرة برجوع « خالد » منتصراً ، خرجوا لاستقباله وقوات المسلمين بالأهازيج وأصناف اللهو « التقليس » وجعل بعضهم يقول لبعض : (مروا بنا فهذا فرج الشر !) تاريخ الطبري ٣/٣٧٩ وابن الأثير ٢/٢٧٢ .

٩ – الاغارة على المصيخ « مصيخ بني البرشاء » :

غضب عرب الجزيرة لمقتل « عقة بن عقة » في موقعة « عين التمر » وكانت الاتصالات بينهم وبين الفرس وثيقة ، فاتفق هؤلاء مع الفرس على حرب المسلمين ، وخرج « زَرْمِهْر » ومعه « روزبان » يريدان الأنبار ، وتم الاتفاق على تنظيم المقاومة في الحصيد والخنافس ، وأمكن تدمير المقاومة قبل عودة خالد إلى « الحيرة » وعندما رجع « خالد » علم أن فلول قوات الفرس قد تجمعت في « المصيخ »[١] بقيادة القائد الفارسي « المهبوذان » وكان عرب المصيخ برئاسة « الهذيل بن عمران » وكانت قوات المسلمين موزعة ، فقد كان « القعقاع بن عمرو التميمي » ومعه قوة كبيرة في « الحصيد » وكان « عروة بن جعد البارقي » في الخنافس ومعه أبو ليلى بن فدكي ، وكانت القوة الرئيسية مع خالد في الحيرة .

أراد خالد تدمير التحالف بين الفرس وبين العرب المتنصرة ، وعرف موقف المقاومة في المصيخ والتي كانت على ثقة من أن

---

(١) المصيخ : بين حوران والقلت – وفيها وقعت « معركة المصيخ » في الاسبوع الرابع من شعبان عام ١٢ هـ (الاسبوع الأول من تشرين الثاني – نوفمبر – ٦٣٣ م) وفيها قتل عبد العزى بن أبي رهم بن قرواش أخا أوس مناة – من النمر – ولبيد بن جرير ، وكان معها كتاب من أبي بكر بإسلامها ، وكان عبد العزى « وأصبح اسمه عبد الله » يردد في تلك الليلة :

أقول إذا طرق الصباح بغارة   سبحانك اللهم رب محمد
سبحان ربي لا إله غيره   رب البلاد ورب من يتودد

تاريخ الطبري ٣/٣٨٢ وابن الأثير ٢/٢٧٢ .

« خالد » لن يهاجمهم طالما أن قواته متفرقة ، وطالما أن «خالد» منصرف إلى مقاومات أخرى ، ولهذا فقد قرر « خالد » توجيه ضربة قوية وحاسمة للمقاومة في المصيخ ، تأخذ شكل إغارة ليلية مباغتة . فأرسل تعليماته إلى « القعقاع وأبا ليلى وأعبد وعروة » للاتجاه إلى « المصيخ » وحدد لهم ليلة معينة وساعة دقيقة للاجتماع . وخرج خالد من « عين التمر » قاصداً المصيخ على « الإبل » يجنب الخيل ، فنزل الجناب فالبردان فالحنى ، واستقل الخيل من « الحنى » . فلما كان تلك الساعة من ليلة الموعد التقى الجميع قرب « المصيخ »واتفقوا على طريقة الهجوم، وقاموا بالإغارة على « الهذيل » ومن معه ومن أوى اليه ، وانطلقت الإغارة (من ثلاثة أوجه) بحيث أمكن تحقيق المباغتة الكاملة والقوم نيام ، فأبادوهم — وأفلت « الهذيل » في أناس قليل ، وامتلأ الفضاء قتلى ، فما شبهوا بهم إلا غنماً مصرّعة[1] وقتل في المعركة رجلان مسلمان كانا في ضيافة «الهذيل»

---

(١) كان بين القتلى « حرقوص بن النعمان » الذي محض قومه النصح ، وأجاد الرأي ، فلم ينتفعوا بتحذيره . وكان « حرقوص » في ليلة الاغارة معرساً بامرأة من بني هلال (تدعى أم تغلب)وحوله بنوه وامرأته ، وبينهم جفنة من خمر ، وهم عليها عكوف يقولون له : ومن يشرب الساعة وفي اعجاز الليل ! فقال : اشربوا شرب وداع ، فما أرى أن تشربوا خمراً بعدها هذا خالد « بالعين » وجنوده بحصيد ، وقد بلغه جمعنا وليس بتاركنا ، ثم قال :

ألا فأشربوا من قبل قاصمة الظهر ... بعيد انتفاخ القوم بالعكر الدثر
وقبل منايانا المصيبة بالقدر ... لحين لعمري لا يزيد ولا يجري

وعندمـا بلغ ذلك « عمر بن الخطاب » غضب لمصرعها ، وحمّل خالد مسؤولية قتلها ، لكن الخليفة « أبا بكر » قال : « أمـا إن ذلك ليس علي إذ نازلا أهل الحرب ، كذلك يلقى من ساكن أهـل الحرب في ديارهم » وعمل الخليفة على دفع « ديتها » من أموال المسلمين ، وأوصى بأولادهما .

١٠ – الثني والزميل :[١]

علم « خالد » أن « ربيعة بن بجير التغلبي » قد نزل في « الثني والبشر » غضباً لعقة ، وأنه اتصل بروزبـة وزرمهر والهذيل ، واتفق معهم على حرب المسلمين . كما عرف « خالد » أن « الهذيل » قد لجأ بعد هربه من المصيخ – إلى « الزميل » حيث كانت فيها قوة ضخمة بقيـادة « عتاب » فأقسم « خالد » على (أن يبغتن تغلب في دارها) . ووضع مخططـه للإغارة على قاعدتي « بني تغلب » في الثني والزميل ، وأعاد تنظيم قواته بسرعة بعـد الإغارة على المصيخ ، وأصدر أوامره إلى القعقاع وإلى أبي ليـلى بأن يسبقاه في التحرك ، وواعداهما الليـلة ليفترقوا فيها للإغارة على الثني من ثلاثة أوجه . – كما فعل بأهل المصيخ – وقـام

(١) الثني : موضع بالجزيرة قرب الرصافـة . معجم البلدان ٢٦/٣ والزميل : موضع في ديار بكر – وهي عند البشر شرقي الرصافة – معجم البلدان ٤٠٥/٤ . والرصافة هي رصافة هشام التي بناها غربي الرقة . وقـد وقعت فيهما الوقعة التي قادها خالد بن الوليد في الأسبوع الأول من رمضان ١٢ هـ (الأسبوع الثاني من تشرين الثاني – نوفمبر – ٦٣٣ م) .

خالد بتظاهرة خداعيـــة ، فنزل حوران ثم الرنق ثم الحماه ، وأخـــيراً توجه إلى نقطة اجتماع القوات – شرقي الرصافة – والتقت القوات في الموعد المحدد بدقة . وانطلقت القوات بحسب المخطط الموضوع من ثلاثة اتجاهـــات . وكانت مباغتة كاملة ، بحيث لم يتمكن أحد من النجاة ، وسبى خالد «الشرخ» الشباب. وبعث بخمس الله إلى أبي بكر (وفيهم بنت ربيعة بن بجـــير التغلبي ، فاشتراها علي بن أبي طالب عليـــه السلام ، فاتخذها زوجة له ، فولدت له عمر ورقية) .

وأعاد خالد تجميع قواته بسرعة ، وانطلق إلى الزميل قبل أن تصل اليها أخبار مـــا حدث في « الثني » وتم تطبيق الخطة ذاتها – الاغارة من اتجاهات ثلاثة – وكانت المباغتـــة مذهلة أيضاً ، وأباد المسلمون أعداءهم .(وقتلوا منهم مقتلة عظيمـــة لم يقتلوا قبلها مثلها) وأصابوا منهم ما شاءوا . ولم يقنع « خالد » بما حققه من انتصارات حاسمة ، فقاد قواتـــه إلى « الرُّضاب » وفيها « هلال بن عقة » في جمع كبير من القوات . ولكن هـــذه « القوات » ما أن علمت بتحرك « خالد » حتى ارفضت من حول « هلال » واضطر هذا إلى الفرار . ودخل خالد إلى « الرضاب » دون مقاومة[1] .

---

(١) الرضاب : موضع الرصافة قبل بناء هشام إياها غربي الرقة (معجم البلدان ٤/٢٥٩) .

١١ – حديث الفراض[١]:

شعر قادة الفرس والروم بخطورة قوة المسلمين المتعاظمة على حدود امبراطوريتهما فحاولوا تنسيق التعاون بينهما في محاولة للقضاء على المسلمين مستعينين في ذلك بأنصارهم من متنصرة العرب . ونبذ هؤلاء القادة العداء التقليدي القائم بين الامبراطوريتين المتنافستين على أرض العرب . وشعر « خالد بن الوليد » بتحالف القوى ، فخرج بجيشه من « الرضاب »[٢] وتوجه به إلى الفراض. وأخذ في الاستعداد للمعركة الحاسمة ، وأمر جنده بالافطار في هذا الشهر من رمضان – حيث اتصلت فيه الغزوات والمعارك .

وأقام خالد معسكره على الفرات في موقع يهيمن على ما حوله. ووصلت قوات الروم ومعها قوات مسالح الفرس (مراكز المراقبة والاستطلاع) وأنصارهم من قبائل تغلب وإياد والنمر، واتصل قادة هذا الجيش الكبير بخالد، وقالوا له : « إما أن تعبر الينا وإما أن نعبر اليكم » ورفض خالد فكرة العبور ومغادرة

---

(١) الفراض : موضع على حدود تخوم الشام والعراق والجزيرة في شرقي الفرات (معجم البلدان ٦/٣٥٠) وفيه قاتل « خالد » تجمع الفرس والروم وأنصارهم من العرب في معركة حاسمة يوم ١٥ ذي القعدة ١٢ هجرية . (٢١ كانون الثاني – يناير – ٦٣٤ م) .

(٢) وفيها قال خالد :

طلبنا بالرضاب بني زهير	وبالأكناف أكناف الجبال
فلم تزل الرضاب لهم مقاماً	ولم يؤنسهم عند الرمال
فان تثقف أسنتنا زهيراً	لكف شريدهم أخرى الليالي

ميدان المعركة الذي اختاره ، فرد على أعدائه : « بل اعبروا الينا » قالوا : « فتنحوا حتى نعبر » . فقال خالد : « لا نفعل ، ولكن اعبروا أسفل منا » وبذلك فرض خالد ميدان المعركة على أعدائه وأرغمهم على خوض المعركة في المنطقة التي حددها لهم . وقال قادة الروم لقادة الفرس (بعضهم لبعض) : « احتسبوا ملككم ، هذا رجل يقاتل عن دين ، وله عقل وعلم ، ووالله ليُنْصرن ولنخذلن » وبذلك يكون قادة الأعداء قد قرروا نتيجة المعركة سلفاً ، ورغم ذلك فانه لم يكن باستطاعتهم الانسحاب والتراجع عن الموقف الذي وضعوا أنفسهم فيه . فعبروا أسفل من خالد ، فلما انتهت عملية العبور قالت الروم لحلفائهم وأنصارهم : « امتازوا حتى نعرف اليوم ما كان من حسن أو قبيح ، من أين يجيء ، ففعلوا » .

ودارت رحى المعركة بقسوة ، واقتتل المسلمون وأعداءهم قتالاً شديداً طويلاً ، أظهرت فيها قوى التحالف بأساً وعناداً ، ثم إن الله عز وجل هزمهم . وقال خالد للمسلمين : « ألحوا عليهم ولا تُرَفهوا عنهم » فجعل قائد قوة الفرسان (قائد الخيل) يحشر منهم الزمرة برماح أصحابه ، فإذا جمعوهم قتلوهم ، فقتل يوم الفراض في المعركة وفي المطاردة مائة ألف مقاتل .

أقام « خالد » على الفراض بعد الوقعة عشرة أيام ، ثم أعاد تنظيم قواته . وأمر « عاصم بن عمرو » أن يسير بهم ، وأمر

« شجرة بن الأعز » أن يضطلع بقيادة المؤخرة ، وتظاهر خالد انه يعتزم التحرك مع هذه المؤخرة .

حجة خالد

غادر « خالد » الفراض وقد أخفى أمراً لم يعرفه أحد سوى عدد قليل ممن عينهم « خالد » لمرافقته ، مع عدد محدود من قادة مؤخرة جيشه . وقصد خالد « الحج » ولم يبق من شهر ذي القعدة أكثر من خمسة أيام (قبل عيد الأضحى بأسبوعين) وكانت المسافة الفاصلة بين مكانه في « الفراض » وبين «عرفات» مسافة بعيدة تتخللها مفاوز الصحراء العربية الكبرى في الجزيرة (ومضى خالد بأصحابه يعتسف البلاد حتى أتى مكة بالسمت فتأتى له من ذلك ما لم يتأت لدليل ولا رئبال . فسار طريقاً من طرق أهل الجزيرة لم يرَ أعجب منه ، ولا أشد على صعوبته منه ، وكان مسير خالد من الفراض أن استعرض البلاد متعسفاً مستميتاً. فقطع طريق الفراض ـ ماء العنبري، ثم مِثْقباً ثم انتهى إلى ذات عرق . فشرق منها ـ اتجه شرقاً ـ فأسلمه إلى « عرفات » من الفراض ، وسمي ذلك طريق « الصُّدّ » .

استطاع « خالد » بذلك أداء مناسك الحج بسرعة ، والعودة إلى قاعدة عملياته قبل أن يتمكن أحد من اكتشاف غيابه ، إذ لم تكد آخر قواته الوصول إلى « الحيرة » حتى وصل « خالد » مع وصول قائد المؤخرة اليها . وكان غياب « خالد » مخالفاً

لقواعد القيادة ، وعرف الخليفة « أبو بكر » بقضية ذهاب « خالد » إلى الحج « دون إذنه ودون إعلامه ، ولكن الخليفة أخذ الأمر بسهولة ويسر ، لا سيما وأنه لم ينتج عن غياب « خالد » وابتعاده عن قواته أي ضرر أو أذى . وكانت الأمور على مسرح عمليات الشام تتطور بصورة خطيرة ، فقد جمع الروم قوات ضخمة ، مما دفع الخليفة إلى القول : « والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد »[1] وكتب إلى خالد رسالة وصلته بعد عودته من « الحج » بقليل وجاء فيها : (أن سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك ، فإنهم قد شجوا وأشجوا ، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت ، فانه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجاك ، ولم ينزع الشجي من الناس نزعك ، فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة ، فأتمم يتمم الله لك ، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ، وإياك أن تدل بعمل فان الله له المن وهو ولي الجزاء)[2] .

كانت أول مهمة تتطلب الحل هي تقسيم القوات ، فقد كان « خالد » يؤمن بنوعية المقاتل وقدرة هذه النوعية على تحقيق التعادل ضد التفوق العددي (الكمي) الذي ينفرد به أعداء المسلمين ، وكان « خالد » يعرف أيضاً أن أمامه في الشام معارك حاسمة ، فكلمات الخليفة تبرز أهمية الموقف الذي تتعرض له قوات المسلمين في الشام وخطورته ، وحاول « خالد » تجاوز

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٤٠٨ .
(٢) تاريخ الطبري ٣/٣٨٥ و ٤٠٧ .

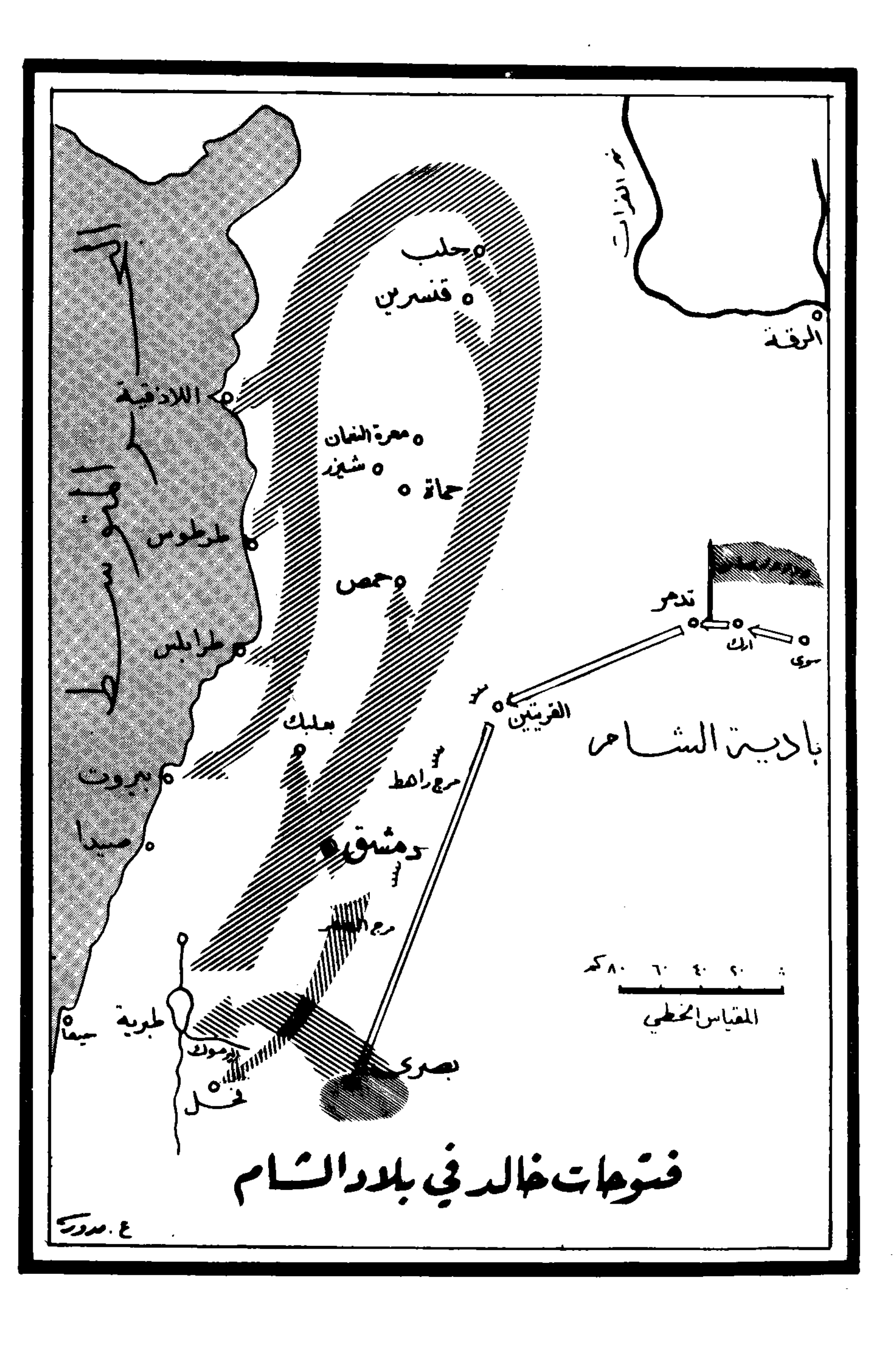
تعليمات الخليفة التي فرضت على خالد(لا تأخذن نجداً الا خلفت نجداً) فأحضر « خالد » أصحاب رسول الله ﷺ ، واستأثر بهم على « المثنى » وترك للمثنى أعدادهم من أهل القناعة ممن لم يكن له صحبة . ولكن « المثنى » احتج على هذه القسمة غير العادلة وقال لخالد : « والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبي بكر كله في استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف ، وبالله ما أرجو النصر إلا بهم ، فأنى تعريني منهم؟»[1] فلما رأى خالد ذلك ، أعاضه منهم حتى رضي . وأخذ في الاستعداد للتحرك الى الشام.

(١) الطبري ٣/٤١١ .

٥ ـ خالــد في الشام

« كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم ! فإني إن استقبلتها حبستني عن غيــاث المسلمين » قالها « خالد » وهو يضع مخططه للتحرك نحو الشام، وتصدى رافع بن عميرة الطائي – دليل خالد – للموقف فقــال : « إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال، والله ان الراكب المفرد ليخافها على نفسه وما يسلكها إلا مغرراً ، إنها لخمس ليال جياد لا يصاب فيها ماء مع مضلتها» فقال له خالد : « ويحك ! إنه والله ان لا بد من ذلك ، إنه قد أتتني من الأمير عزمة بذلك ، فمر بأمرك » . واختلف القادة، فوقف « رافع » في النهاية ليقول: « لا يختلفن هديكم ولايضعفن يقينكم ، واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النيــة ، والأجر على قدر الحسبة ، وإن المسلم لا ينبغي أن يكترث بشيء يقع فيه مع معونة الله له » فقالوا له « أنت رجل قـــد جمع الله لك الخير فشأنك » .

انتهت مرحلة الاستعداد للمسير ، ونظمت الأمور الادارية



حلب
قنسرين
نهر الفرات
الرقة
اللاذقية
معرة النعمان
شيزر
حماة
طرطوس
حمص
طرابلس
تدمر
ارك
سوى
القريتين
بادية الشام
بعلبك
مرج راهط
بيروت
صيدا
دمشق
مرج الصفر
طبرية
حيفا
اليرموك
فحل
بصرى
٠ ٢٠ ٤٠ ٦٠ ٨٠ كم
المقياس الخطي
فتوحات خالد في بلاد الشام
ع. مدور

(اصطحاب ما يكفي من الإبل للطعام والماء لمدة خمسة أيام) وهناك اختلاف في حجم القوة فتذكر المصادر التاريخية أن حجم هذه القوة يتراوح بين بضع مئات ، وبضع آلاف تصل إلى تسعة آلاف ، ومهما كان عليه الأمر فإن العـدد لا يقل عن خمسة آلاف ولا يتجاوز تسعة آلاف بالمقارنة مع حجم الجيوش التي كان يتم إطلاقهـا من الجزيرة إلى مختلف الجبهات . وغادر خالد وجيشه الحيرة وخرج المثنى لوداعه ورافقه حتى «قراقر»[1] وهناك انفصل القائدان اللذان سجلا معاً عـلى صفحة التاريخ أروع الانتصارات ، ورسما للمسلمين أنصع صفحات الجهـاد في سبيل الله . وقد يكون من الصعب تصوير انفعال القائدين لحظة الوداع ، ولكن ثورة العاطفة قد كبحت أمام ما كان ينتظرهما من أعباء جسام فقـد كان على المثنى متابعة تنفيذ الواجبات القتالية في اقليم واسع ومع قوة تناقص حجمها، وكان على خالد المضي لمجابهة مواقف لا يعرف عنها الكثير ، وفي منطقة تختلف عن تلك التي مارس فيها أعماله القتالية طوال عام ، وحقق فيها من الانتصارات ما يقصر طموح أي قائد عن بلوغه .

مضى ركب خالد يخترق الصحراء ، قافلة طويلة ، ترهقها الحرارة اللاهبة في النهار ، وتضعفها برودة الليـل القاسية في الصحراء . وكانت السماء تتلألأ بالنجوم ليل حزيران « يونيو »

---

(١) قراقر : وادي لبني كلب بالسماوة من ناحية العراق (معجم البلدان ٤٤/٧) اي على حدود العراق وبادية الشام من جهة العراق .

(من عام ٦٣٤ م) الموافق أوائل ربيع الثاني من السنة الثالثة عشرة للهجرة. وتجاوز الركب «قراقر» ومضت الأيام الأربعة، وجاءت أصعب مرحلة – وهي مرحلة الوصول الى سوى [١] حيث الأمل بالعثور على الماء، ولكن الركب لم يعثر على الماء، وخشي خالد على أصحابه في آخر يوم من المفازة، فقال « لرافع ابن عميرة » وهو أرمد . « ويحك يا رافع ! ما عندك ؟ » قال أدركت الريّ ان شاء الله، فلما دنا من العلمين . قال للناس . أنظروا هل ترون شجيرة من عوسج كقعدة الرجل ؟ قالوا : ما نراها . قال : إنا لله وإنا اليه راجعون ! هلكتم والله إذاً وهلكتُ، لا أبالكم ! أنظروا، فطلبوها فوجدوها قد قطعت وبقيت منها بقية، فلما رآها المسلمون كبروا وكبر رافع بن عميرة ثم قال : احفروا في أصلها، فحفروا فاستخرجوا عيناً فشربوا حتى روى الناس. فاتصلت بعد ذلك لخالد المنازل . فقال رافع: والله ما وردت هذا الماء قط إلا مرة واحدة وردته مع أبي وأنا غلام [٢] .

لما انتهى خالد إلى « سوى » أغار على « مصيخ بهراء » بالقُصواني – ماء من المياه، فصبح المصيخ والنمر، وناس منهم

---

(١) سوى : مـــاء لبني بهراء . من ناحية السماوة (معجم البلدان ٥/١٥٧) اي على حدود العراق وبادية الشام من جهة الشام.

(٢) وفي ذلك يقول شاعر من المسلمين :

لله عينـا رافع انى اهتدى	فوز من قرار إلى سوى
خمساًإذا ما سارها الجيش بكى	ما سارها قبلك إنسي يرى

يشربون خمراً لهم في « جفنة » قـــد اجتمعوا عليها ، ومغنيهم يقول :

ألا عللاني قبل جيش أبي بكر
لعل منايانا قريب وما ندري

ألا عللاني بالزُجـاج وكرِّرا
على كميتَ اللونِ صافية تجري

ألا عللاني من سلافة قهوةٍ
تسلي هموم النفس من جيد الخمر

أظن خيول المسلمـين وخالداً
ستطرقكم قبل الصباح من البشر

فهل لكم في السير قبل قتالهم
وقبل خروج المعصرات من الخدر

فيزعمون أن مغنيهم ذلك قتل تحت الغارة ، فسال دمه في تلك الجفنة .

سار « خالد » بعد ذلك إلى « أرك » فصالحـــوه . ثم أتى «تدمر» فتحصن أهله ، ثم صالحوه . ثم أتى « القريتين » فقاتلهم فظفر بهـم وغنم ، وأتى « حوارين » فقاتل أهلها فهزمهم وقتل وسبى ، وأتى « قصم » فصالحه « بنو مشجعة من قضاعـــة » واستمر « خالد » وجيشه ، دون توقف ، ودون استراحة ، من

مسير صعب وشاق إلى معارك متتاليـة . وأخيراً وصل جيش المسلمين إلى المرتفع المعروف حاليـاً باسم « طلوع الثنايا » حيث عدرا والقطيفة ، وظهرت غوطة دمشق بكل روعتها وبهائها ، – من بعيد – ومع الضباب الذي يلف المدينـة الخالدة كانت القلعة والحصون تنتصب شامخة . ونشر خالد رايته **السوداء والتي كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتسمى العقاب ، فسميت الثنية منذ ذلك الوقت باسم « ثنيـة العقاب » وأصبح « العقاب » رمزاً للمسلمين في ديار الشام** . ولكن ذلك المنظر الرائع لم يستوقف المسلمين طويلاً ، فقد كانت أمام «خالد» واجبات كثيرة . فسار خالد بجيشه إلى «مرج راهط» فأغار على «غسان» في يوم فصحهم ، فقتل وسبى خلقاً كثيراً وأرسل سريـة إلى كنيسة بالغوطة فقتلوا الرجال ، وسبوا النساء ، وساقوا العيال إلى خالد . وسار « خالد » إلى « بُصرى » حيث التقت قوات « خالد » بقوات « أبي عبيدة » . وكان فرح اللقاء ، معادلاً لألم الفراق الذي بدأت به « مسيرة خالد » من العراق إلى الشام .

١ – خالد في اليرموك :

(إن هذا يومٌ من أيام الله ، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي . أخلصوا جهادكم ، وأريدوا الله بعملكم ، فان هذا يوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية ، وأنتم على تساند وانتشار ، فان ذلك لا يحل ولا ينبغي . وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم

وبين هذا ، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنــه الرأي من واليكم ومحبتــه . إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر ولو علم بالذي كان ويكون ، لقد جمعكم . إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم ، وأنفع للمشركين من امدادهم ، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم ، فالله الله ، فقد أفرد كل رجــل منكم ببلد من البلدان ، لا ينتقصه منه أن دان لأحد من أمراء الجنود ولا يزيده عليه أن دانوا له . إن تأمــير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ﷺ . هلموا فإن هؤلاء تهيئوا ، وهذا يوم له مـــا بعده ، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها . فهلموا ، فلنتعاور الإمارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم ، والآخر غداً ، والآخر بعد غــد ، حتى يتأمر كلكم ، ودعوني أَلِيكُمُ اليوم)[1] .

لقد كانت هذه المقولة التي حفظها التاريخ لخالد بن الوليد هي أساس التنظيم الجديد الذي أمكن بواسطته مجابهة قوات الروم المتفوقة وإلحـــاق الهزيمة بها ، ولم يكن الوصول إلى هذه المقولة التي تمثل «قرار القتال» والتنظيم للمعركة إلا نتيجة الخبرات التي اكتسبها خالد في حروبه السابقة وإلا نتيجة الموقف الذي شعر به خالد وان خطورة هذا الموقف على المسلمين أكبر من خطر أعدائهم عليهم .

لقد نزل خالد إلى « بُصرى » وشهد بعض المعارك ، ورأى

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٣٩٦ .

(أن كل قتال المسلمين يتم على تساند، كل جند وأميره، لايجمعهم أحــــد ، وكان عسكر أبي عبيدة باليرموك مجاوراً لعسكر عمرو بن العاص، وعسكرُ شرحبيل مجاوراً لعسكر يزيد بن أبي سفيان ، فكان أبو عبيدة ربما صلّى مع عمرو ، وشرحبيل مع يزيد ، فأمـــا عمرو ويزيد فانهما كانا لا يصليان مع أبي عبيدة وشرحبيل ، وقدم خالد بن الوليد وهم على حالهم تلك فعسكر على حدة ، فصلى بأهل العراق)[1] .

كان جيش المسلمين يفتقر إلى « وحدة القيادة » وكانت وحدة القيادة تسمح للقائد بحرية العمل ، مما يساعد على مجابهة المواقف المختلفة ، ولا يترك مصير المعركة تحت رحمة قـــادة القوات المختلفين . وعلاوة على ذلك ، فقــد كانت وحدة القيادة عاملاً أساسياً في تنظيم المعركة ، وفي تنسيق التعـــاون بين القوات ، وعلى هذا فعندما طرح « خالد » الموقف أمام القادة وافقوا على وجهة نظره ، وبدأ خالد على الفور باعادة تنظيم المعركة على أساس الكراديس (الكتائب) وكانت قوة كل كردوس تعادل ألف مقـاتل . فكان في اليرموك ٣٦ ألف مقاتل من المسلمين تم تنظيمهم في ٣٦ أو ٣٨ كردوساً . ولكن ، وقبل الوصول إلى اليرموك ، قاد « خالد » مجموعة من الأعمال القتالية التي استنزفت قدرة الروم « البيزنطيين » وكان من أبرزها « موقعة أجنادين».

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٣٩٥ .

١ – **موقعة أجنادين :** [١] عندما أخذت قوات المسلمين في التجمع ، كان « عمرو بن العاص » مقيم في عربات من غـــور « فلسطين »ولم يكن باستطاعته اللحاق بقوات التجمع الاسلامي ، فقد كان يجابه حرباً كؤوداً في مجابهة تجمع الروم الذين حشدوا ثمانين الفاً تقريباً بقيادة « تذارق » – أخو هرقل لأبويه – بمهمة تدمير جيش عمرو بن العاص على طريق التدمير المتتابع لقوات المسلمين ، ولم يكن باستطاعـــة خالد بن الوليد ترك هـــذه القوة لتعيق « عمرو بن العاص » عـــن اللحاق بقوات المسلمين والانضمام اليهم . وعرف « خالد » أن ثقل تحرك قوات الروم المثقلين بشؤونهم الادارية سيساعد قواته الخفيفة عـــلى حسم الصراع فوق أرض فلسطين ، قبـــل أن ينهي الروم تجمعهم واستعداداتهم القتالية في الجولان . ونظم« خالد » قواته بسرعة فكان التنظيم على النحو التالي :

١ – القلب : بقيـادة الصحابي « معاذ بن جبل » ويشكل الكتلة الرئيسية للقوات .

٢ – الميمنة : بقيادة عبد الرحمن بن أبي بكر .

٣ – الميسرة : بقيادة سعد بن عامر .

---

(١) أجنادين : موضع معروف بالشام من ناحية فلسطين (معجم البلدان ١٢٦/١) . وفيه وقعت معركة حاسمة من معـــارك المسلمين في ٢٨ جمادى الأول ١٣ هـ الموافق ٣٠ تموز (يوليو) ٦٣٤ م. ويذكر الطبري أن أجنادين تقع بين الرملة وبيت جبرين .

٤ – الساقة « المؤخرة » وهي بقيادة يزيد بن أبي سفيان.

٥ – مجموعتين من الفرسان ، الأولى بقيادته والثانية بقـادة شرحبيل بن حسنة .

لم تكن المسافة بين موقع « خالد » وموقع «عمرو بن العاص» مسافة بعيدة ، فهما يعملان على مسرح عمليـات واحد . ولكن المنطقة كانت لا تزال خاضعة لقوات الروم « البيزنطيين » وكان لعامل الزمن دوره في عمليـــات « خالد » ولم يكن باستطاعته التضحية بعامل « أمن القوات » لحساب « السرعة والمرونـة » فكان لا بد له من اتخـاذ كل تدابير الحيطة ، مع محاولة الوصول إلى ميدان المعركة بسرعة قدر المستطاع . وكانت الامدادات لقوات الروم مستمرة ، ولكن مقابل ذلك ، اكتسب المسلمون ثقة كبرى بأنفسهم من خلال مجموعة انتصاراتهم السابقة فكانت الروح المعنويـة للروم متدهورة في حين كانت الروح المعنوية للمسلمين قوية في أساسها وزاد من قوتهـا ما أمكن تحقيقه من انتصارات على قوات الروم المتفوقة . وحاول « تذارق » عندما شهد امدادات المسلمـين ، معرفة طبيعة هؤلاء المقاتلين[1]

---

(١) تذكر المصادر التاريخية أن (القبقلار) أحد قـادة « تذارق » (أرسل رجلاً عربياً إلى المسلمين يأتيه بخبرهم فدخل فيهم ، وأقام يوماً وليلة، ثم عاد اليه ، فقال : ما وراءك ؟ فقال : بالليل رهبان وبالنهار فرسان ، ولو سرق ابن ملكهم قطعوه ولو زنى رجم لاقامة الحق فيهم . فقال : ان كنت صدقتني لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها ، ولوددت أن حظي من الله أن يخلي بيني وبينهم،فلا ينصرني عليهم ولا ينصرهم علي، وعندما نشب ←

والدخول معهم في مفاوضات على أمل حمـــل المسلمين الاكتفاء بالغنائم وإعطائهم ما يحتاجونه من أموال وخيول وإعادتهم إلى جزيرتهم ، ورفض خالد العرض المقدم اليـــه ، كما رفض قبول التحديات والتهديدات التي وجهها تذارق للمسلمين . وبدأت المعركة عند فشل المفاوضات ، واستهدف المسلمون ابادةالعناصر القيادية ، ونجح ضرار بن الأزور بقتل حاكم طبريا منذ اللحظة الأولى لبداية القتال، ثم قتل « اصطفان » حاكم عمان ،واشتدت المعركة ، وتزايد الموقف خطورة . وانتهت معركة اليوم الأول بسقوط ثلاثة آلاف من جند الروم فيهم عشرة من القادةوالحكام في الأقاليم منهم « دمر » حاكم نوى « وكوكب » حاكم البلقاء و« لاوي بن حنا » ملك غزة .

أراد « تذارق » نصب كمين لقتل « خالد بن الوليد » فطلب اليه التقدم للتفاوض معه في موقع حـدده ، واستطاع خالد بن الوليد الحصول على المعلومات عن مكان الكمين وقوته ، فأرسل في الليل عشرة من أشجع قادته – بقيادة ضرار بن الأزور – فأقام هؤلاء كميناً في الليل ، وعندما تقدم فرسان الروم لإقامة كمينهم انقض عليهم ضرار وقوته وأبادوهم ، وارتدوا ثيابهم ،

← القتال. ولما رأى القبقلار ما رأى من قتال المسلمين قال للروم: لفوا رأسي بثوب . قالوا له : لم ؟ قال : يوم البئيس ، لا أحب أن أراه ، ما رأيت في الدنيا يوماً اشد من هـــذا ، قال : فاحتز المسلمون رأسه وانه للفف . (الكامل – ابن الأثير = ٢٨٦ – ٢٨٧) .

واحتلوا موقعهم . وتقدم « تذارق » في اليوم التالي إلى موضع الكمين وحـــده وهو يعتقد أنه محاط بجنده ، وتقدم « خالد » وبعد حوار قصير ومثير ، أمسك تذارق بخالد ، وأشار إلى قوة الكمين بالخروج . وتقدم فرسان ضرار ، وكانت مباغتة أرعبت « تذارق » عندمـــا كشف ضرار وجنده أقنعتهم ، وأهوى « ضرار » بسيفه فاقتلع رأس « تذارق » وألقى به في مقدمة صفوف الخصم . وبدأت على الفور المعركة الحاسمة والقصيرة التي انتهت بهزيمة جيش « تذارق » وتدميره ، ولم ينج منه إلا عدد قليل ، هربوا في كل وجه . وتحرر « خالد » من الجيش المنظم الذي يضم ثمانين ألفاً . وأصبح باستطاعة « عمرو بن العاص » الانطلاق مع « خالد » إلى « الجولان » .

تجمعت قوات المسلمين في الجولان ، وعقد القادة مؤتمراً للحرب، وطرح فيه الموقف للنقاش ،ومر «أبو سفيان بن حرب» فقال : « **ما كنت أظن أن أبقى حتى أرى أغلمة من قريش يذكرون أمر حربهم ، ويتذاكرون بما يكيدون به عدوهم في منزلي ولا يحضروني** » وأدخل أبو سفيان بن حرب ، فجلس إلى المؤتمرين وقال لهم : « إن معسكركم هذا ليس بمعسكر ، إنني أخاف أن يأتيكم أهل فلسطين والأردن فيحولون بينكم وبين مددكم من المدينـــة فتكونوا بين عسكرهم ، فارتحلوا حتى تجعلوا أذرعات خلف أظهرهم فيأتيكم المدد والخبر . وإذا قبلتم رأيي فاجعلوا خالد بن الوليد أميراً على الخيـــل ، ومروه

بالوقوف بين المعسكرين وبين الخيل فانه سيكون لرحيل العسكر وقت السحر أصوات عالية تحدث لعدوكم فيكم طمعاً ، فإن أقبلوا يريدون ذلك لقيتهم الخيول فكفتها ، وان كانت للخيول جولة دافعت عنها الرماة »[1] .

وتحركت قوات العرب المسلمين من الجولان إلى اليرموك ، ونزلت قوات الروم ، وأخذ الطرفان في الاستعداد للمعركة الحاسمة .

٢ – في اليرموك :

كانت اليرموك نتاج جهد مشترك أسهم فيه القادة جميعاً ، باخلاص لا مثيل له ، وبتجرد لا نظير له ، واندفع المقاتلون بحماسة وإيمان لا حدود لها ، ولكن رغم ذلك يبقى دور «خالد ابن الوليد » دوراً أساسياً وحاسماً ، فهو الذي نظم المعركة ، وهو الذي تولى إدارة الحرب والقتال .

لقد انطلق الروم إلى اليرموك بقوة ٢٤٠ ألفاً من المقاتلين الأشداء الذين خبرتهم الحرب وخبروها ، وعرفوا ويلاتها ، وكانت معهم وصية هرقل : (انزلوا بالروم منزلاً واسع الطعن واسع المطرد ، ضيق المهرب) ولكن هذا الجيش الكبير تمركز في اليرموك ، وإلى يمينه نهر الأردن وبحيرة طبريا ، يحميان جناحه

---

(١) تهذيب ابن عساكر ١٦١/١ .

الأيمن ، وبينه وبين المسلمين نهر اليرموك الذي يحمي جبهته . أما جناحه الأيسر فلا خطر من تطويقه نظراً لتفوق الروم العددي وقدرتهم على زج قوات من اليسار ، كما أن قاعدتهم الخلفية مأمونة لاتصالها بقواعد الامداد والتموين في عمق بلاد الشام . وعندما نزل الروم في اليرموك ، درس عمرو بن العاص طبيعة الأرض ، وإمكانات الافادة من ميزاتها ، وعندما شهد ميدان القتال محدداً ومحصوراً من اتجاهين قال : (**أبشروا ، حصرت الروم وقل ما جاء محصور بخير**) وخلال هـذه الفترة ، كانت امدادات الروم متصلة ، فوقف رجل وقال لخالد : (**ما أكثر الروم وأقل المسلمين**) فقال خالد : (**ما أقل الروم وأكثر المسلمين ! إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان ، لا بعدد الرجال ، والله لوددت أن الأشقر براء من توجيه وأنهم أضعفوا بالعدد**) [1] .

كانت قوة المسلمين ٣٦ ألف مقاتل ، فنظمهم فجعل في القلب ١٨ كردوساً و ١٠ كراديس في كل جناح من الجناحين الأيمن والأيسر . وكلف بقيادة الكراديس أفضل قادته[2] . وتم تنظيم القوات على الشكل التالي :

١ – المقدمة بقيادة قباث بن أشيم .

---

(١) الأشقر من الخيل : الأحمر في مغره حمرة ، يحر منها السبيب. ووجي الفرس وتوجى ، أي أصيب بالوجا ، وهو أن يشتكي الفرس باطن حافره ، وكان فرس خالد قد حفي في مسيره . (الطبري ٣/٣٩٨) .

(٢) في تاريخ الطبري ٣/٣٩٦ – ٣٩٧ أسماء قادة الكراديس .

٢ – الميمنة بقيادة شرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص.

٣ – الميسرة بقيادة يزيد بن أبي سفيان .

٤ – القلب بقيـــادة أبو عبيدة بن الجراح . وتم وضع معسكر النساء خلف التنظيم القتالي وأسندت اليه واجبات رعاية الجرحى ، وعدم السماح لأحد بالتراجع ، وعندما انتهى التنظيم لاحظ خالد بن الوليد قلة عدد فرسان المسلمين بالنسبة لأعدائهم فقرر تعديل مخططه ، وتقدم إلى أبي عبيدة بن الجراح ليقول له : (إن هؤلاء – الروم – قـد أقبلوا بعدة ولهم زجل ومزرح ، وان لهم حدة لا يردها شيء وليست خيلي بالكثيرة ، ولا والله لا قامت خيلي لشدة خيلهم ورجالهم ابداً . وقد رأيت أن أفرق خيلي فأكون في إحدى الخيلين وقيس بن هبيرة في الخيـل الأخرى ثم تقف خيلنا من وراء الميمنة والميسرة ، فإذا حمل الناس ثبّت الله قدامهم وإن تكن الأخرى حملت خيولنا عليهم وهي حامية ، وتكون الأعداء قد انتهت شدتهم وتفرقت جماعتهم ، فأطلق الأعنة عند ذلك إلى أن يظفرنا الله بهم ويجعل الدائرة عليهم ،وقد رأيت أن يجلس سعيد بن زيد مجلسك هذا ويقف من ورائه وبحذائه مائتان أو ثلثمائة يكونون للناس ردءاً)[١] .

وجاء التنظيم النهائي على النحو التالي :

١ – النسق الأول من المشاة على ثلاثة صفوف ومهمته تحطيم حدة هجوم الروم ، وإضعافه .

---

(١) تهذيب ابن عساكر ١/١٦٤ .

٢ – توزيع قوة الفرسان على مجموعتين بواجب حماية الأجنحة وسد الثغرات . وتتمركز خلف الأجنحة . وكان من واجب الفرسان أيضاً الاشتباك مع فرسان الروم ، ثم الانسحاب إلى مواقعها خلف الأجنحة .

٣ – تكوين قوة احتياطية واجبها دعم محور ثقل الهجوم ، وسد الثغرات ، ومجابهة الطوارىء والقيام بالهجوم المضاد .

وقرر خالد بن الوليد في تعديل مخططه مبدأين رئيسيين هما:

١ – **فصل فرسان الروم عن مشاتهم** وضرب كل طرف بمعزل عن دعم الطرف الآخر ، وذلك عن طريق تنسيق التعاون بين قوة الرمي للمسلمين (المشاة) وقوة الصدمة (الخيالة) .

٢ – **ترك قوات الروم حتى تتقدم من أنساق المشاة** حتى يتم تحطيم قوة هجومها بالرمي ، ثم يقوم فرسان المسلمين بسحقها عن طريق قوة الصدمة (الفرسان) .

وأنهى المسلمون استعدادهم ، وقام القارىء المقداد بتنفيذ السنة التي سنها رسول الله ﷺ بعد بدر (أن تقرأ سورة الجهاد عند اللقاء ، وهي الأنفال ، ولم يزل الناس بعد ذلك على ذلك) .

(خرجت الروم في تعبية لم يرَ الراؤون مثلها قط ، وخرج خالد في تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك) وتبرهن هذه المقولة التاريخية على أن حوار الارادات بين القادة كان هو الشكل المهيمن على المعركة ، وقد حفظت المصادر التاريخية أيضاً مجموعة كبيرة من الصور المتباينة لمعركة « اليرموك الخالدة » والتي تبرز

مقدار التعقيد الكبير الذي تميزت به تلك المعركة . ومهما كان عليه الموقف فقد تجاوز دور خالد في المعركة حدود العمل التنظيمي ، وإدارة الحرب ليفرض هيمنته على مسيرة الصراع السياسي والايديولوجي (الديني) الذي سبق المعركة ورافقها .

لقد حاول الروم اتباع وسيلتهم التقليدية في تفريق العرب وضرب بعضهم ببعض ، فكان رد الفعل الطبيعي هو قيام خالد ابن الوليد بتوجيه ضربة حاسمة لأنصار الروم من الغساسنة الذين كان يتولى قيادتهم « جبلة بن الأيهم الغساني » مما أقنع العرب بالتخلي عن تحالفهم التقليدي مع الروم . وفي الوقت ذاته كان لصمود المقاتلين المسلمين وعنادهم وفضائلهم الحربية قبل كل شيء دور أساسي وحاسم في اضعاف الروح المعنوية للروم وحمل بعضهم على الوقوف مع العرب وخوض المعركة معهم (مثل قصة القائد الرومي – جرجه)[1] وهكذا كانت معركة اليرموك نقطة التحول الحاسمة لا في مجال الصراع المسلح بين الروم والمسلمين ، وإنما في مجال الحرب الدينية التي حددتها سهول اليرموك[2] .

---

(١) انظر قصة « جرجه » في نهاية هذا الكتيب – قراءات ٢ –

(٢) اليرموك – (او هيروماكس) وهناك بعض المؤرخين الذين يصعب عليهم التمييز بين هذه المعركة ومعركة « اليرموث » والمقصود بها « أجنادين» وقد يكون تقارب الحدود الزمنية والجغرافية بين المعركتين قد أدى إلى المزج بينهما في معركة واحدة أحياناً . وفي معركتين غير متمايزتين تماماً في بعض الأحيان الأخرى . ومهما كان عليه الأمر فان الفوارق بين المعركتين من وجهة نظر « فن الحرب » هي فوارق ثانوية ومعدومة الأهمية ، إذ ان الأهمية هنا تبرز في وقائع القتال أكثر مما تبرز في الاطر الزمنية والجغرافية لمسيرة الأحداث .

وجدير بالذكر ان معركة اليرموك الخالدة لم تبدأ كما هو معروف في صباح يوم ١٢ رجب من السنة الثالثة عشرة للهجرة (١١ أيلول « سبتمبر » ٦٣٤) وانما بدأت قبل ذلك بأكثر من شهر حيث أنهى الروم حشد قواتهم وأخذوا في عرض قوتهم المادية وتنظيم أمور معركتهم ، بهدف ارهاب العرب المسلمين. وتبع ذلك اشتباكات مسلحة أمكن تصعيدها خلال خمسة أيام إلى أن أمكن حسم الصراع المسلح لصالح العرب المسلمين في اليوم السادس من المعركة وليلته. ورغم أهمية المعارك والاشتباكات في الأيام الخمسة والتي تبرز كفاءة خالد القيادية وقدرته على إعادة التنظيم بسرعة ، ومجابهة المواقف المتجددة باستمرار . إلا أنه بالمستطاع تجاوز ما حدث خلال هذه الأيام للوصول دفعة واحدة إلى يوم حسم معركة اليرموك (١٢ رجب) ذلك أن أحداث المعركة في هذا اليوم وتحولاتها تضم كل خصائص القتال في اليرموك وميزاته .

بدأت معركة اليوم الحاسم كما هو معروف في أساليب الحرب القديمة بالمبارزات والاشتباكات الفردية التي كان يضطلع بها أساساً خيرة الفرسان ، وقد انسحبت قوة الفرسان بعد ذلك لتنضم إلى قوة الفرسان خلف جناحي التنظيم القتالي لقوات العرب المسلمين وأخذت حدة القتال في التعاظم ويمكن إيجاز مسيرة الأعمال القتالية على الأجنحة والقلب على النحو التالي :

معركة الجناح الايمن : انطلق قائد جيش الروم (ماهان

– أو – باهان) على رأس جيشه لتوجيه الضربة الرئيسية ضد الجناح الايمن بهدف القيام بحركة استدارة واسعة من أجل تطويق جيش المسلمين . وجابه جند المشاة المسلمين هذا الهجوم ، وقاوموا زحف الروم بعناد كبير ، لكن تفوق الروم عددياً ساعدهم على ممارسة ضغوط قوية أرغمت قوات الجناح الأيمن على التراجع نحو القلب . وثبت بعض الرجال – من أمثال الحجاج ابن عبد يغوث مما أثار حمية قبائل حمير وخولان وحضرموت ، فعادت إلى الهجوم والالتفاف حول بقية جنود الميمنة ، وانطلق أبو هريرة من أصحاب الرسول ﷺ وهو يقاتل بحماسة ومعه مجموعة من الأزد مما أثار الحماسة ، ونجح المجاهدون في تكوين ستارة وقائية أحاطت بالمتسللين من الروم ، واستمر القتال بعناد وضراوة بعد ان اختلط المجاهدون على الجناح الأيمن بالمجاهدين من قوات القلب .

معركة الجناح الايسر : عندما أخذ ماهان في الهجوم على جناح المسلمين الأيمن ، أصدر أوامره إلى قادته بالهجوم على الجناح الأيسر للمسلمين لإحكام الطوق وعزل المسلمين . وطلب « قناطر » من « جرجرين » قائد جند « أرمينيا » البدء بالهجوم ، إلا أن « جرجرين » رفض البدء بالهجوم ، وطلب إلى « قناطر » أن يبدأ هو بالهجوم ، وطال الجدل وكل يدعو الآخر للتقدم ، وأخيراً اتفقا على القيام بهجوم مشترك . واندفعت قوات الجيشين ضد الجناح الأيسر للمسلمين ، وصمد المشاة هنا أيضاً لثقل هجوم

الروم ، وأمكن تدمير الموجات الأولى من جند الروم أمـــام مواقع المسلمين ، ولكن التفوق بالقوى مــارس دوره هنا أيضاً فأرغم جنــاح المسلمين الأيسر على التراجع ، لكن حملة الرايات والشجعان من المسلمين ثبتوا في مواقعهم وهم يقاتلون ويقتلون ، واندفع الروم من الثغرة التي أحدثوهـــا ووصلوا إلى ما وراء المجاهدين المسلمين، وفر بعض من لم تكن لهم طاقة على الصمود، فاستقبلتهم النسوة وأرغمتهم على معاودة القتال .

معركة القوة الاحتياطية : اختار قائد القوة الاحتياطيــة للمجاهدين (سعيد بن زيد) ثنيــة من ثنايا الأرض خلف قوات القلب، ووزع المقاتلين الذين بقيادته من أفراد القوة الاحتياطية وكمنت هذه القوة بعد أن أجــادت التمويه ، وعندما نجح الروم باختراق الجناحين الأيمن والأيسر ، وتقدمت قواتهم لتطويق المسلمين ، وثب « سعيد بن زيد »والمجاهدون معه، وقاتلوا بعناد وشجاعة ، بحيث استطاعوا رغم ضعف قوتهم العددية الصمود أمام تفوق الروم ، وانضم « يزيد بن أبي سفيان » ومعه مجموعات من المقاتليــن فدعموا القوة الاحتياطية ، وكذلـك فعل « شرحبيل بن حسنة » ولكن القوة الاحتياطية اضطرت إلى التراجع أمام ضغط جيش الروم حتى كاد ينكشف قلب جيش المسلمين .

معركة الفرسان : وقف « خالد بن الوليــد » خلف الجناح الأيمن ومعه كتلة الفرسان الرئيسية وهو يتابع تطور المعركة ،

ولما شاهد بعض فرسان الروم وقد نجحوا في اختراق ثغرة بين صفوف المسلمين ، انطلق لقيادة الهجوم المضاد ، ونجح في صد كل هجوم للروم ضد قوات القلب . وفي هذه الفترة وصله مراسل من « قيس بن هبيرة » قائد قوة الفرسان على الجناح الأيسر ، وهو يعلمه بنجاح الروم في اختراق جناح المسلمين الأيسر . وأسرع « خالد » لدعم « قيس » واستطاع فرسان المسلمين بعد تجمعهم مجابهة فرسان الروم بعد أن سقط عدد كبير منهم يزيد على ستة آلاف فارس أثناء المعركة ، كما استنزفت المعركة قوة بقية فرسان الروم .

معركة النساء : نجح فرسان الروم في التوغل خلف التنظيم القتالي للمسلمين ، ووصل تراجع جند المسلمين حتى المنطقة الخلفية (حيث معسكر النساء والشؤون الإدارية) وهنا انطلقت النساء المسلمات وهن يرجمن الرجال بالحجارة ، ويصرخن في وجوههم «أين أين عز الإسلام والأمهات والأزواج »وكانت ابنة « ابن العاص » تقود جموع النساء ،وتصرخ بالمتراجعين من مقاتلي المسلمين فتقول : « قبح الله رجلاً يفر عن حليلته ، وقبح الله رجلاً يفر عن كريمته » وتتردد أصوات النساء فتلطم أسماع الرجال وهي تقول « والله لستم بعولتنا إن لم تمنعونا » وترتفع صوت أهازيج النساء المسلمات بحداء شعبي معروف :

نحن بنات تبع وحِمْيَرَ   وضربنا في القوم ليس ينكر
لأننا في الحرب نار تسعر   اليوم تسقون العذاب الأكبر

ولم يقف دور النساء عند حدود (إثارة الحماسة) وإنما نزلن إلى ميدان المعركة، بالحجارة وبأعمدة الخيام ، وسقط بعض جند الروم ، حتى أن « أم الحكيم بنت الحارثة بن هشام » قتلت وحدها ستة فرسان من الروم ، وأثار ذلك الحماسة ، فإذا « بالعباس بن سهل بن سعد الساعدي » يثور بعد أن وصل في تراجعه حتى معسكر النساء ، فانطلق بأهزوجته :

يا هارباً عن نسوة ثنيات فعن قليل ما ترى سبات
ولا خطيئات ولا رصينات

ويتجمع حوله بعض من ثقل عليهم هجوم الروم ، فيقومون بهجوم مضاد ، وتتعاظم قوة المسلمين بعد أن شعر الجميع بأن قوة الروم قد وصلت حتى نهايتها . ويندفع « خالد بن الوليد » بقيادة الهجوم المضاد في اللحظة المناسبة مما اضطر بقية فرسان الروم للانسحاب ، وأعاد المجاهدون في سبيل الله تنظيم صفوفهم بسرعة . وأقبل الليل . ولكن « خالداً » صمم على متابعة المعركة حتى لا يسمح للروم بإعادة تنظيم قوتهم والاستعداد لاستئناف القتال في اليوم التالي : ووزع خالد قواته على المرتفعات المحيطة بميدان المعركة ، وأمر الجند بإشعال النيران على محور الطريق وحتى نهر اليرموك ، ثم اندفع بقوة صغيرة إلى داخل معسكر الروم على شكل إغارة مباغتة واشتبك مع فرسان الروم ثم تظاهر «خالد بن الوليد» بالفرار ، وتبعه فرسان الروم وبذلك فصل فرسان الروم عن جند مشاتهم. وانطلق المجاهدون

من كمائنهم لإبادة فرسان الروم ، وأمكن تدمير القسم الأكبر من تلك القوة واتجـه من استطاع مغادرة طوق الحصار نحو دمشق على شكل أفراد ممزقين . وفي الوقت ذاته انقض جنـد المسلمين على مشاة الروم ، وبدأت عمليـة إبادة الجند المقيدين بالسلاسل. وكان سقوط قتيلين أو ثلاثة كافياً لسقوط السلسلة في الواقوصة. وما أن أشرقت شمس اليوم التالي حتى كان سهل اليرموك فارغاً من كل أثر للروم وكانت الواقوصة تضم وحدها ١٢٠ ألف مقاتل. مقابل ٣ آلاف من جيش المسلمين فيهم خـيرة الصحابة من المهاجرين والأنصار . ووصف المؤرخ المسلم « الطبري » الصورة النهائية لليرموك بقوله : (تضعضع الروم ، ونهد «خالد» بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم ، وكان مقاتلهم واسع المطرد ضيق المهرب ، فلما وجدت خيلهم مذهباً ذهبت ، وتركوا رجلهـم — مشاتهم — في مصافهم، وخرجت خيلهم تشتد بهم في الصحراء وأخر الناس الصلاة حتى صلوا بعد الفتح . ولما رأى المسلمون خيل الروم توجهت للهرب ، أفرجوا لها ، ولم يحرجوها ،فذهبت وتفرقت في البلاد ، وأقبل « خالد » والمسلمون على الرجل — المشاة — فقضوهم ، فكأنما هدم بهم حائط ، فاقتحموا في خندقهم ، فاقتحمه عليهم ، فعمدوا إلى الواقوصة ، حتى هوى فيها المقترنون وغيرهم ، فمن صبر من المقترنين للقتال ، هوى به من خشعت نفسه ، فيهوي الواحد بالعشرة لا يطيقونه ، كلما هوى اثنان كانت البقية أضعف ، فتهافت في الواقوصة عشرون ومائة

ألف ، ثمانون ألف مقترن وأربعون الف مطلق : سوى من قتل في المعركة من الخيل والرجل)[1] .

توفي الخليفة أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – ووصل مراسل إلى اليرموك – هو شداد بن أوس بن ثابت الأنصاري – ومعه محمية بن جزء – حاملاً معه رسالة من أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب تتضمن نبأ وفاة الخليفة وعزل « خالد بن الوليد » فكتموا الخبر عن الناس حتى ظفر المسلمون – وكانوا بالياقوصة يقاتلون عدوهم من الروم . وقاد « أبو عبيدة بن الجراح »قوات المسلمين لفتح الشام . وكان « خالد بن الوليد » على مقدمته وعندما وصل جيش المسلمين إلى « دمشق » نظم أبو عبيدة حصار المدينة ، وعين « خالد بن الوليد » لقيادة القوات في قطاع الباب الشرقي .

٣ – من اليرموك إلى دمشق :

حاصرت قوات المسلمين مدينة « دمشق » طويلاً ، وصمدت الحامية المدافعة عن المدينة مستفيدة من قوة القلاع والحصون ، وحدثت معارك كثيرة لم يتمكن المسلمون خلالها من حسم الصراع لمصلحتهم ، ومقابل ذلك صبر المسلمون صبراً جميلاً لهذا النوع من حروب الحصار التي لم يعرفها العرب ، وكان « خالد »يتابع أعمال الحصار بحذر ويجمع المعلومات عن أعدائه ، فعلم أن حاكم

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٤٠٠ .

دمشق « بطريقها » قد رزق ابناً، ويظهر أن الحاكم أراد الافادة من هذه المناسبة للترفيه عن قوات الحامية المدافعة عن المدينة ، فأمر باقامة احتفال كبير وإغداق الأطعمة وأنواع الخمور على الجند . فأكل هؤلاء وشربوا ، وغفلوا عن تنفيذ واجباتهم . ولم يشعر بذلك أحد من المسلمين إلا ما كان من خالد ، فإنه كان لا ينام ولا ينيم ، ولا يخفى عليه من أمورهم شيء ، عيونه ذاكية وهو معني بما يليه . قد اتخذ حبالاً كهيئة السلاليم، وأوهاقاً[1].

فلما أمسى من ذلك اليوم نهدومن معه من جنده الذين قدم بهم عليهم. وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي وأمثاله من أصحابه في أول يومــه ، وقالوا : إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا إلينا ، وانهدوا للباب . فلمـا انتهى إلى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون رموا بالحبال الشُرف وعلى ظهورهم القرب التي قطعوا بها خندقهم . فلما ثبت لهم وهقان تسلق فيهما القعقاع ومذعور ثم لم يدعا أحبولة إلا أثبتاها – والأوهاق بالشرف – وكان المكان الذي اقتحموا منه أحصن وكان يحيط بدمشق ، أكثره ماء ، وأشده مدخلاً ، وتوافوا لذلك ، فلم يبق ممن دخل معه أحد إلا رقي أو دنا من الباب ، حتى إذا استووا على السور حَدر عامة أصحابه ، وانحدر معهم . وخلف من يحمي ذلك المكان لمـن يرتقي ، وأمرهم بالتكبير ، فكبر الذين على رأس

---

(٢) الأوهاق : جمع وهق ـ بالتحريك ـ الحبل في طرفيه أنشوطة يطرح في عنق الدابة أو الانسان حتى يؤخذ . (تاريخ الطبري ٣/٤٣٩ ـ ٤٤٠).

السور ، فنهد المسلمون إلى الباب ، ومال إلى الحبال بشر كثير ، فوثبوا فيهـــا . وانتهى « خالد » إلى أول من يليه فأبادهم ، وانحدر إلى الباب فقتل الحرس القائم على حمايتـــه . وثار أهل المدينة ، وفزع سائر الناس ، فأخذوا مواقفهم ولا يدرون مــا يحدث. وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم، وقطع «خالدبن الوليد» ومن معه أغلاق البــاب بالسيوف . وفتحوا للمسلمين ، فأقبلوا عليهم من داخل ، حتى ما بقي مما يلي باب « خالد » مقاتل إلا أُبيد وقتل . ولما شد « خالد » على من يليه ، وبلغ منهم الذي أراد عنوة ، أسرع من هرب إلى حرس الأبواب الأخرى ، وقد كان المسلمون دعوهم إلى المشاطرة فرفضوا واغتروا، فلم يفاجئهم إلا وهم يطلبون اليهم الصلح ، فأجابوهم وقبلوا منهم ، وفتحوا لهم الأبواب . وقــالوا : ادخلوا وامنعونا – احمونا – من أهل ذلك الباب – يقصدون الباب الشرقي الذي اقتحمه خالد وجنده – فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم . ودخل « خالد » مما يليه عنوة . فالتقى «خالد» والقواد في وسطها –عند سوق النحاسين حالياً – فأجروا ناحية « خالد » «مجرى الصلح » .

٤ – خالد بعد دمشق

سارت قوات المسلمين بعد فتح دمشق إلى « فحل » وكان «خالد» يتولى قيادة قوات المقدمة . وعند انتهاء المعركة بانتصار المسلمين الحاسم ، توجه « أبو عبيدة » ومعه « خالد » نحو «حمص»

وفي الطريق اليها وقعت معركة «مروج الروم» — سهل البقاع— وتولى «خالد» قيادة مجموعة الفرسان المكلفة بمطاردة جيش الروم وبعد هذه المطاردة انقض « خالد » على مؤخرة الكتلة الرئيسية لقوات الروم ، وأمكن بذلك تدمير الروم في المرج الذي كان يحمل اسمهم تدميراً كاملاً . وكان دور « خالد » في هذه المعركة أساسياً وحاسماً[1] وبقي « خالد » على مقدمة جيش أبي عبيدة ابن الجراح في فتح «بعلبك » و« حمص » وبعد ذلك وجه « أبو عبيدة » خالد بن الوليد لفتح الشمال ، حيث وقعت « معركة قنسرين »[2] .

نظم « خالد » قواته ، وتوجه بها نحو « قنسرين » فلما نزل بالحاضر زحف اليهم الروم «بقيادة ميناس» وهو من أعظم قادة الروم بعد « هرقل » . فالتقوا بالحاضر فقتل ميناس ومن معه مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها ، فأما الروم فماتوا على دمه حتى لم يبق منهم أحد . وأما أهل الحاضر فأرسلوا إلى « خالد » أنهم عرب ، وأنهم إنما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه ، فقبل منهم وتركهم . « **ولما بلغ عمر ذلك ، قال : أمَّر خالد نفسه ، يرحم**

---

(١) وفي هذه المعركة قال خالد :

نحن قتلنا توذرا وشوذرا — وقبله ما قد قتلنا حيدرا

نحن أزرنا الغيضة الأكيدرا

(تاريخ الطبري ٥٩٩/٣) .

(٢) قنسرين : مدينة قديمة من مدن الشام ، كانت تقع جنوبي غربي حلب بينها وبين « حماة » .

الله أبا بكر ، هو كان أعلم بالرجال مني » .

سار « خالد » بعد ذلك حتى نزل «قنسرين» فتحصنوا منه، فقال: **«إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله اليكم أو لأنزلكم الينا »** فنظروا في أمرهم ، وذكروا ما لقي أهل « حمص » فصالحوه على صلح حمص ، فأبى إلا على إخراب المدينـــة فأخربها ، ثم تابع « خالد » تقدمه ، مع مطاردة الروم في كل مكان ، مما أدخل اليأس في قلب « هرقل » الذي مضى نحو القسطنطينية ، حتى إذا ما وصل إلى « شمشاط » وقف على مرتفع ونظر إلى الوراء ، حيث سهول سورية وقال كلمته الشهيرة : **« عليـــك السلام يا سورية سلامـــاً لا اجتماع بعده ، ولا يعود إليـك رومي إلا خائفاً» .**

استمر التعاون وثيقاً بين « أبو عبيدة » و« خالد » وعندما انتهت فتوحات حلب والمنطقة الساحلية استقر « أبو عبيدة » في حمص واستقر «خالد» في قنسرين ،ومضت السنة السادسة عشرة للهجرة في إعادة بناء المجتمع الإسلامي ، وتنظيم أمور الدولة الجديدة ، وكان من الطبيعي أن تظهر النقمة بين صفوف العرب الذين نزعت امتيازاتهم بعد انتشار الإسلام فكتب هؤلاء إلى حلفائهم القدامى واستجاب « هرقل » امبراطور الروم لطلب « عرب الجزيرة » فوجه قوات ضخمـــة على أمل التعاون مع « نصارى العرب » للقيام بهجوم عام يمكن بواسطته انتزاع « سورية » من قبضة « العرب المسلمين » وعالج « أبو عبيدة »

الموقف بأن طلب إلى « خالد » الانسحاب بقواته والانضمام إلى قوات حمص وتجمع المسلمون في ظاهر حمص . وكتب «أبو عبيدة» للخليفة عمر رضي الله عنه ، فأسرع الخليفة إلى « الجابية » قرب دمشق لمعالجة الموقف عن قرب ، ووجه في الوقت ذاته أوامره إلى والي الكوفة من أجل دعم حمص بقوات احتياطية مع توجيه ضربات إلى « عرب الجزيرة » .

ووجد « أبو عبيدة » أن باستطاعته حسم المعركة ، فقام بتنظيم هجوم قوي أمكن بواسطته تدمير الروم . ثم وجه « خالد » مع قوة من الفرسان للمطاردة ، ووصلت هذه القوة إلى ما وراء الدروب ، وعاد « خالد » من غزوة « الصائغة » وهو مثقل بالغنائم . وانتشرت أخبار انتصار « خالد » مرة أخرى في أقطار العالم الاسلامي وأسرع اليه أصدقاؤه القدامى، وشيوخ العرب ، فأكرم وفادتهم ، وأخذ في توزيع الأموال ، وكان «الأشعث بن قيس» ممن انتجع خالداً « بقنسرين » فأجازه بعشرة آلاف .

٥ ـ عزل « خالد بن الوليد » :

كان « عمر » لا يخفى عليه شيء في عمله ، فلما قفل خالد ، وبلغ الناس ما أصابت تلك الصائغة . انتجعه رجال ، فانتجع خالداً رجال من أهل الآفاق . وكتب إلى « عمر » بخروج من خرج ، من العراق منتجعاً ـ قاصداً ـ خالد ، وكتب اليه من

الشام بجائزة من أجيز فيهـا ، فدعا البريـد ، وكتب معه إلى أبي عبيدة: (إنْ خالد أكذب نفسه ، فهو أمير على ما هو عليه وإن هو لم يكذب نفسه فأنت الأمير على ما هو عليه ، وطلب اليه أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين إجازة « الأشعث » أمن ماله أم إصابة أصابهـا ، فان زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقر بخيانة ، وإن زعم أنهـا من ماله فقد أسرف، واعزله على كل حال، واضمم اليك عمله) .

فكتب « أبو عبيدة » إلى « خالد » فقدم عليه ، ثم جمع الناس ، وجلس لهم على المنبر، فقام « بلال » مولى أبي بكر إلى أبي عبيدة فقال : ما أمرت به في « خالد » ؟ فقال « بلال » : « إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ... ثم تنـاول قلنسوتـه فعقله بعمامته » وقال ما تقول : ورد خالد : ما أنا بالذي أعصي أمير المؤمنين ! وسأله بلال : « يا خالد ! أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من إصابة ؟ » فلم يجبه حتى أكثر عليه ، وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً . وكرر بلال القول : «ما تقول يا خالد ! أمن مالك أم من إصابة ؟»وفي النهاية قال خالد : « لا ، بل من مالي » وأحصى كل ما يملكه خالد ، فبلغت قيمته ثمانـين الف درهم ، فناصفه على ذلك . وقام بلال ، فأطلق خالد ، وأعـاد قلنسوته ، ثم عمه بيده ، ثم قال : نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا . وقال أبو عبيدة : « إن هذا لا يصلح إلا بهذا » وقيل لعمر بن الخطاب : « يا أمير المؤمنين : لو أنك رددت على خالد ماله ! » فقال :« إنما أنا تاجر للمسلمين ، والله لا أرده عليه

ابداً». وتذكر الناس قول عمر في بداية ولايته عندما عزل «خالد» فقال: «لا يلي لي عملاً أبداً». وأقام «خالد» بعد ذلك في «حمص» لا يدري أمعزول أم غير معزول؟ وجعل أبو عبيدة لا يخبره، حتى إذا طال على «عمر» أن يقدم، ظن الذي قد كان، فكتب اليه بالاقبال. فأتى «خالد» أبا عبيدة، فقال: «رحمك الله، ماأردت إلى ما صنعت! كتمتني أمراً كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم!» فقال أبو عبيدة: «إني والله ما كنت لأروعك ما وجدت لذلك بدأ، وقد علمت أن ذلك يروعك». فرجع «خالد» إلى «قنسرين» فخطب أهل عمله وودعهم وتحمل، ثم أقبل إلى «حمص» فخطبهم وودعهم. ثم خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر، فشكاه وقال: «**لقد شكوتك إلى المسلمين، وبالله إنك في أمري غير مجمل يا عمر، فقال عمر: من أين هذا الثراء؟ قال: من الأنفال والسهمان مازاد على الستين ألفاً فلك**» فقوم «عمر» عروضه فخرجت اليه عشرون الفاً، فأدخلها بيت المال، ثم قال: «يا خالد! والله إنك عليّ لكريم، وإنك إليّ لحبيب. ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء».

وقال خالد: «**الحمد لله الذي قضى على أبي بكر بالموت وكان أحب إلي من عمر. والحمد لله الذي ولى عمر، وكان أبغض إلي من أبي بكر، ثم الزمني حبه**».

تسبب عزل «خالد» في إصابة العالم الإسلامي بهزة عنيفة، فقد كانت سمعة «خالد» لا حدود لها، وكان من الطبيعي أن تثور الأسئلة الكثيرة في رؤوس المسلمين المجاهدين، وبصورة خاصة أولئك

الذين عرفوا خالد عن قرب ، وقاتلوا تحت رايته ، فأصدر أمير المؤمنين « عمر » بياناً جاء فيه :« **إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ، ولكن الناس فتنوا به ، فخفت أن يوكلوا اليه ويبتلوا بهفأحببت أن يعلموا أنالله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة** » .

لقد أحب «خالد» مدينة «حمص» كما أحب مدينة «قنسرين» فودع « المدينة » ومضى عبر الصحراء بعد أن ودع رفيق عمره – أمير المؤمنين عمر بنالخطاب – وهو يكرر في سره ما قاله له عند لقائه به :

صنعتَ فلم يصنع كصنعك صانع

وما يصنع الأقوام فالله يصنع[1]

ووصل « خالد » إلى « حمص ». واستقر بها ، لم تتعبه الحياة ولم يتعب بها ، لقد بلغ الستين من عمره ، وها هم رفاقه وإخوانه وأحبائه قد سبقوه إلى « جنة عرضها السموات والأرض » أين هو « عكرمة بن أبي جهل » ؟ وأين هم صحابة الرسول ﷺ ، إنهم فوق كل شبر من أرض العراق والشام ، وها هي رايات الإسلام تزحف عالية نحو الآفاق البعيدة ، ويشعر خالد بالألم يعتصر قلبه ، فقد تمنى أن يمضي مجاهداً في سبيل الله حتى آخر الدنيا . ولكن ها هو المرض وقد أخذ ينهش فيه – كالوحش

(١) تاريخ الطبري ٣/٤٠٢ و٦٠١ و٤/٦٦ - ٦٧ .

المفترس – ويسقط السيف ، ولكن قبل أن يمضي عن الدنيا رفع رأسه، وينظر إلى ما حوله مودعاً ، ويقول : « **لقد شهدت كذا وكذا زحفاً ، وما في جسمي موضع شبر إلا وفيه ضربة سيف أو رمية سهم أو طعنة رمح ، وها أنذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير . فلا نامت أعين الجبناء** »[1] .

انتشر خبر « وفاة خالد » في أقطار العالم الإسلامي . وخرجت نساء « بني مخزوم » يفتقدن الفارس الذي أغنى الدنيا عطاء ، وأصبح فخر الأهل والعشيرة . وما كان أبعد الشقة بين « المدينة » و« حمص » ولكن حزن « بني مخزوم » نساءهم ورجالهم تجاوز الحدود المكانية والزمانية ، بقدر ما تجاوز حدود الزمن وروابط الأهل والعشيرة ، فقد كان « غياب سيف الله » وتنكيس « راية العقاب » جرحاً في قلب كل من يردد لا إله إلا الله – محمد رسول الله .

ولعل ما لم تعرفه نساء « بني مخزوم » ولا « المجاهدون في سبيل الله » من رفاق خالد ، أن تراث خالد سيبقى خالداً أبد الدهر ، وسيبقى خالد فخراً لا « لآل مخزوم أو المغيرة » وإنما لكل إنسان يفخر بأمته وبتراثها وأمجادها . ولعل أبلغ كلمة رثاء هي تلك التي قالها أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه : « وما على نساء – بني مخزوم – أن يبكين أبا سليمان – **فعلى مثله تبكي البواكي** » .

---

(١) ابن قتيبة ٢٦٧ .



الفصل الثاني

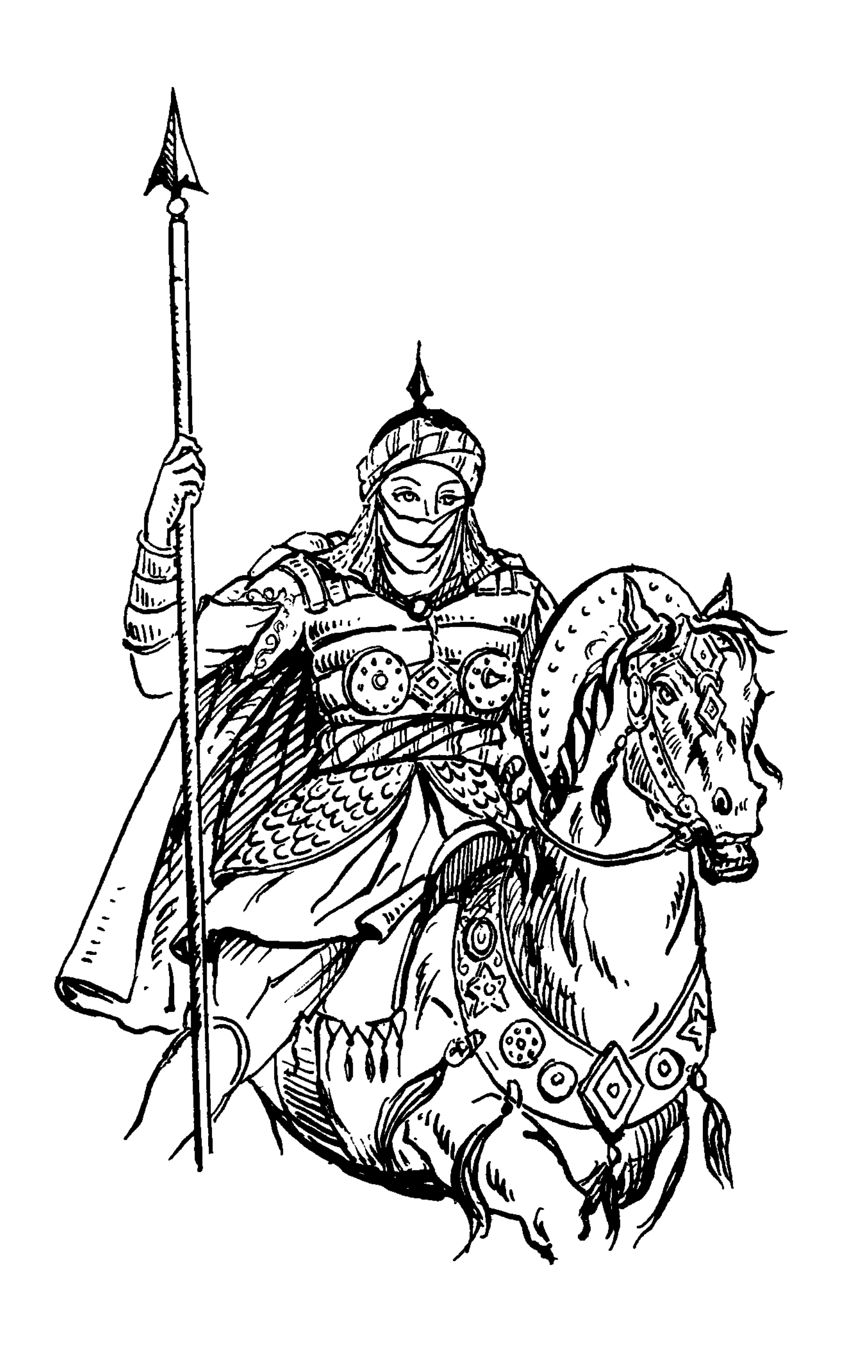
« خالد بن الوليد » وفن الحرب

أ – في الاستراتيجية العليا :

١ – استراتيجية الهجوم غير المباشر .
٢ – الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة .
٣ – بناء المجتمع الجديد .
٤ – وضوح الهدف .
٥ – الحرص على العنصر العربي (دعامة الاسلام).
٦ – استراتيجية الحرب التشتيتية .
٧ – استراتيجية الهجمات الوقائية .

ب – في مبادىء الحرب :

١ – المباغتة .
٢ – أمن العمل .
٣ – القدرة الحركية .
٤ – المبادأة واستخدام القوة الهجومية
٥ – مبدأ الاقتصاد بالقوى .
٦ – المحافظة على الهدف .
٧ – المؤخرات – والشؤون الادارية .



أ ــ في الاستراتيجية العليا

« والله لأنسين الروم وساوس الشيطان
بخالد بن الوليد »
(ابو بكر الصديق)

١ ــ استراتيجية الهجوم غير المباشر :

لعل « فن الحرب » لم يعرف قائداً تتمثل في أعماله استراتيجية الهجوم غير المباشر مثل « خالد بن الوليد »، ولو رجعنا لعملياته الأولى « في موقعة أُحد » لظهر أفضل نموذج لاستراتيجية الهجوم غير المباشر عند هجوم خالد على مؤخرة المسلمين ومن نقطة الضعف الخطيرة التي وضعها الرسول ﷺ في أول اعتبار له عند تنظيم المعركة ثم أغفلها المسلمون. ويمكن بعد ذلك استعراض كل أعمال « خالد بن الوليد » حيث تظهر عمليات خالد ــ على شكل مسيرات طويلة للوصول إلى مؤخرات قوات العدو أو مجنباته . وقد عبر خالد عن هذه الاستراتيجية عند حديثه مع دليله « رافع بن عميرة » إذ قال له : « كيف لي بطريق أخرج

فيه من وراء جموع الروم ، فإني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين » . ولقـد اضطر « خالد » في موقعتين حاسمتين مجابهة قوات أعدائه في معركة جبهية ، كانت الأولى « موقعة اليمامة » وكانت الثانيـة « موقعة اليرموك » ولكن رغم ذلك فقد بقي هدف خالد الدائم البحث عن الوسيلة لضرب مؤخرة العـدو ، ومباغتته بتهديد يحرمه من حرية العمل ، ولهذا عمل « خالد » في اليمامـة على ضرب القوات المتفوقة مع البحث عن ثغرة تصل بقوات المسلمين إلى « قاعدة المرتدين في الحديقة » فكان في ذلك حسم الصراع المسلح لمصلحة المسلمين، وفي اليرموك ، عمل«خالد» على فصل قوات الفرسان عن المشاة ، فتمكن بذلك من الوصول إلى مؤخرة الروم وتطويقها مما حمل الفرسان على الفرار وبذلك استطاع تدمير « مشاة الروم » والقذف بهم إلى « الواقوصة » . وقد كان هدف « خالد » الدائم هو اقناع أعدائه بقصورهم عن مجابهة قواته ، وعجزهم عن تحقيق النصر . فارتبطت عنـــده « استراتيجية الهجوم غير المباشر المادية – بنظيرتها المعنوية » مما كان يضمن له الوصول إلى الحسم في الصراع المسلح . ويمكن التساؤل : (هل كان اقتحام أسوار دمشق من أصعب نقاطها أكثر من نموذج أعلى لاستراتيجية الهجوم غير المباشر ؟) ثم هل كانت معارك العراق بكاملهـا غير تجسيد رائع لكل معطيات استراتيجية الهجوم غير المباشر ؟. مهما كان عليه الأمر ، فهناك ظاهرة تتجاوز في أهميتها كل ما عداها من ظواهر الاستراتيجية المذكورة وهي :

١ - تكييف هـــذه الاستراتيجية بحسب المواقف التي تتم مجابهتها مما يبرهن على المرونة الرائعة في تفكير خالد مما ساعده على تطوير أساليب العمل .

٢ - العمل بتخطيط دقيق في إطار من التوازن المحكم بين الهدف - والوسائط المتوفرة مع المحافظة باستمرار عـــلى قوة زخم الهجوم، مما يساعد على الانتقال مباشرة من المعركة الجبهية إلى المعركة عـــلى المؤخرات ، بمعنى تطوير استراتيجية الهجوم الجبهي إلى استراتيجية الهجوم غير المباشر ، وذلك في الحالات التي تظهر فيها صعوبة استخدام استراتيجية الهجوم غير المباشر منذ بداية الاشتباك .

٢ - الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة :

قد يكون من الصعب تصور امكانات القيام بالتوغل العميق للوصول إلى مجنبات العدو أو مؤخرته ، دون تعرض القوات المتوغلة ذاتها للتهديد بالتطويق والعزل . وهنا تظهر كفاءة خالد في ضمان شروط أمن قواته وتنفيذ عملياته دون التعرض للخطر ، **وفي الواقع فقد تلقى خالد درساً قاسياً في « موقعة حنين »** فقد كان « خالد » في هذه المعركة مسؤولاً عن الاستطلاع وضمان « أمن القوات » ولكنه وقع في كمين محكم كاد يقضي عـــلى قوة جيش المسلمين بكاملها لولا شجاعة الرسول ﷺ ، ولولا كفاءته القيادية العالية ، وقد تعلم « خالد » كثيراً من هذا الدرس بحيث

أنه لم يقع بعدها أبداً في مأزق من المآزق التي قد تجابهها القوات عند بحثها عن مؤخرة قوات العدو لحسم الصراع المسلح . وقد كان الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة هو أساس العمل لتطبيق استراتيجية الهجوم غير المباشر .

لقد استطاع « خالد بن الوليد » إبراز مفهومه الخاص « بالقاعدة القوية والمأمونة » في عدد من الحالات فقد التزم قبل كل شيء بعدم تجاوز شواطىء الفرات في كثير من الأحيان ، وفي معركة « الفراض » طلب إليه قادة التجمع الفارسي الرومي الإختيار بين البقاء في قاعدته أو عبور النهر ، بقولهم له : « إما أن تعبروا الينا وإما أن نعبر اليكم » فكان جواب « خالد » حاسماً : (بل اعبروا الينا) .

وبذلك ترك « خالد » لنفسه حرية بقاء الاتصال مع الصحراء. وفي معركة اليرموك تكررت هذه الظاهرة ذاتها . وكذلك الأمر في كل المعارك . وكان لخالد أسلوب خاص في تنفيذ مبدأ « القاعدة القوية والمأمونة » وهذا الأسلوب هو :

١ – عزل مسرح العمليات قدر المستطاع عن المحيط الخارجي .

٢ – تنفيذ الأعمال القتالية بسرعة مذهلة تضع العدو في حالة عجز عن التدخل في العمليات .

لقد كان مسرح العمليات بكامله هو «قاعدة قوية ومأمونة »

بالنسبة لخالد بن الوليد (سواء بالعراق أو بالشام) ولكن رغم ذلك فقد كانت كل بقعة من هـذا الميدان الواسع هي « قاعـدة قوية ومأمونة » ويظهر ذلك في حرص « خالد » على تصفية قوات الروم في أجنادين ودعم « عمرو بن العاص » حتى لا تكون هناك قوة تهدد قوات المسلمين في مؤخرتها عند الانتقال إلى الجولان .

٣ – بناء المجتمع الجديد :

وقف « خالد » في الحيرة وأمامه « عدي » أحـــد زعماء المدينة من متنصرة العرب وقال له: « ويحكم ! ما أنتم ؟ أعرب؟ فمـا تنقمون من العرب ؟ أو عجم ؟ فمـا تنقمون من الإنصاف والعدل؟» فقال له عدي: « بل عرب عاربة، وأخرى متعربة.. وليدلك على ما نقول أنه ليس لدينا لسان إلا العربية »وتبرز هذه المحـــاورة « مفهوم خالد لبناء المجتمع الجديد على أساس الدين الإسلامي » لا سيما وأنه لم يبق لمتنصرة العرب من روابط تشدهم إلى أهلهم سوى (رابطة اللسان) فقد مزقهم الانتساب إلى الفرس والروم ، وضعفت لديهـم أصالة العرب عند الانتماء إلى ديانات الروم « البيزنطيين » و« الفرس » فتركز جهد « خالد » على « متنصرة العرب » لتمزيق روابطهم بالولاء أو بالديانـة إلى الدولتين العظميين ، وردهم إلى الرابطة الحقيقية ، رابطة اللسان والقلب ، رابطة الولاء الحقيقي للعرب في عقيدتهم الدينية ، ولم يعد من المهم بالنسبة «لخالد» الابقاء على روابط ضعيفة بين العرب

إن لم يتم دعم هذه الرابطة بالعقيدة الإسلامية، ولهذا كان «خالد» أشد وطأة على العرب المتنصرة مما هو ضد «الفرس» ولقـــد برهنت هذه الاستراتيجيـة على فاعليتها، إذ ردعت العرب عن دعم أعداء المسلمين مـن فرس وروم. ولكن، ومع استخدام القسوة ضد هؤلاء، فقد حرص خالد باستمرار على «اجتذاب العرب والإحسان اليهم وتآلفهم واستخـدام كل فرصة مناسبة لذلك. ولعل محادثاته وأعماله أفضل برهان على هذا النهج الذي كان يعـبر عنه بقوله: «**لكم ما لنا وعليكم ما علينا**». ويظهر حرص «خالد» بعد ذلك، على بناء المجتمع الجديد من خلال اصرار خالد على منح عمال الأراضي حريتهم وضمان الأمن لهم، وعدم التعرض لهم بأذى. إلا إذا حملوا السلاح ضد المسلمـين، أو كانوا عوناً لأعداء المسلمين. وقد جاءت اتفاقيات الصلح التي عقدها «خالد» مع أصحاب البلاد من العرب ضمن هذا الإطار ذاته، ولعل في كتب أهل البلاد ببراءة ذمة «خالد» أفضل برهان على أسلوب «خالد» في إقامة قواعد المجتمع الجديد، «فقد أقر ـ خالد ـ الفلاحين ومن أجاب إلى الخراج من جميع الناس بعدما دعوا» وكانت كتب أهل البلاد لبراءة ذمة «خالد» موحدة وهي كالتالي: «**إنا قد أدينا الجزيـــة التي عاهدنا عليها خالدٌ العبد الصالح والمسلمون عباد الله الصالحون. على أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم**» (تاريخ الطبري ٣/٣٥٢ و٣٧١).

٤ – وضوح الهدف :

لم يكن نجاح « خالد » في استخدام الاستراتيجيات المختلفة مما سبق ذكره ، ومما سيتم التعرض له فيما بعد ، إلا نتيجة « لوضوح الهدف » فقد حقق « خالد » نجاحاً تعبوياً – تكتيكياً – في موقعة أحد ، ولكن هـــذا النجاح لم يحقق تحولاً حاسماً لأن « هدف الحرب » لم يكن على مثل مستوى السياسة الاستراتيجية للمشركين ، وفي موقعة « حنين » فشل « خالد » لكن هذا الفشل كان أضعف من « السياسة الاستراتيجية » للمسلمين ، فلم يحدث تأثيراً حاسماً على مسيرة الأعمال القتاليـــة ، وأفاد « خالد » من الفشل بقدر ما أفاد من النصر ، فحدد أساليبه لخوض القتال ضمن إطار التوازن بين « غاية السلم » و« هدف الحرب » وضمن إطار هذا التوازن ذاته ، كان خالد يختار من بين الوسائل المتوفرة له – أو الخيارات المفتوحة بحسب التعبير الحديث – ما هو ملائم لحسم الصراع المسلح والوصول إلى« هدف الحرب »يظهر هنا – خاصة – فضل الإسلام على « خالد » فقد حددت العقيدة الدينية الإسلاميـــة أسس « السلم والحرب » كما حددت الوسائل التي يمكن اتباعها ، وجاءت تجارب خالد تحت قيادة الرسول ﷺ ، فشكلت لدى خالد العقيدة القتاليـــة الإسلامية المرتبطة عضوياً بالعقيدة الدينية ، واستوعب خالد ذلك كله في قلبه وعقله ، فتحقق التكامل ، ووضحت الرؤيا وتفتحت البصيرة على آفاق غير محدودة .

لقد كان « خالد » موهوباً للقيادة العسكرية دون ريب ، وكانت له كفاءته الفريدة، ولكن يمكن التساؤل عن مصير هذه الكفاءة لو لم يضمن لها الإسلام التفتح على العالم ،ولو لم يتوفر لها هدف كبير ؟ لقد كان من المحال على « خالد » قيادة أكثر من مئـــات المقاتلين أو بضعة آلاف من الفرسان – في أفضل الظروف – لو بقي في حظيرة الجاهلية ، وكان من المحال على خالد أيضاً الطموح لأكثر من تحقيق هدف محدود على مستوى معركة محدودة . لو بقي في صفوف المشركين ، وقد ضمن الإسلام لخالد أفق العمل غير المحدود بقدر ما حدد له الهدف الكبير الذي يجب عليه العمل من أجله هدف نشر الإسلام ورفع رايتـــه .

وهكذا فان صورة « خالد » لم تكن أكثر من صورة هزيـــلة – كصورة عنترة العبسي أو دونها – لو لم ينتقل إلى الاسلام فيضرب بسيف الله ويرفع راية العقاب . وقد عرف خالد ذلك. ولم يكن إسلام خالد يقيناً بهدف البحث عن هذه المميزات التي يضمنها له الاسلام. ولكن خالداً حصل على هذه المميزات بصورة طبيعية ، على نحو ما حصل عليها كل قادة العرب المسلمين ، وعلى نحو ما أفاد منها أيضاً كل المجاهدين في سبيل الله .

٥ – الحرص على العنصر العربي « دعامة الاسلام »

قاد خالد بن الوليد قوات المسلمين في معارك كثيرة ، لم ينكب المسلمون خلالها ، وكان « خالد » في معاركه كلها يتقدم الصفوف ، ويفدي المجاهدين بنفسه ، ويقتحم مواطن الخطر

مستأثراً بها عنهم ، وقد يكون من غير الطبيعي أو من غير الضروري أن يقتحم القائد بنفسه مواقع الخطر ، ولكن قضية التقدم عـــلى القوات والاستئثار بمواقع الخطر شيء ، وقضية الحرص على المرؤوسين وحمايتهم هي شيء مختلف تمامـــاً . وفي الواقع ، فقد كان لاندفاع خالد نحو مواقع الخطر فضائله ، إذ أنه كان يثير الحماسة، وكان أيضاً يحقق بعض ما هو مفروض من (الحرص على العنصر العربي – دعامة الإسلام) لكن تحقيق هذا المبدأ بكل أبعاده كان يظهر من خلال مجموعة التدابير الوقائية التي يلتزم خالد بتنفيذها سواء في مجال (الأمن – أو تطبيق أساليب مبتكرة باستمرار ، أو حتى عن طريق التأمين الإداري للقوات) بحيث لم يكن يغامر بإلقاء المسلمين إلى التهلكة .

« **أشداء على الكفار ، رحماء بينهم** » ذلك هو المبدأ الذي جاء به الاسلام ، ومن هذا المبدأ استخلصت العقيدة القتالية الاسلامية مبدأ (الحرص على العنصر العربي – دعامة الاسلام) وكثيرة هي الآيات الكريمة التي تؤكد هذا المبدأ ، وتفرض على القادة الالتزام به. وقد عرف « خالد » عن الرسول ﷺ مقدار الحرص على (الانسان المسلم) لا كوجود مادي فقط ، وإنمـــا كحضور معنوي أيضاً ، بل ربما كان الحرص على الروح المعنوية للإنسان المسلم أكبر قدراً من الحرص على وجوده المادي، فالأعباء المفروضة على الإنسان المسلم أكبر بكثير من قدرة احتمال الانسان العادي ، وكان الحرص على الروح المعنوية هو وسيلة (المعاوضة)

التي تهب المسلم القدرة العالية لاحتمال أصعب الأعباء « الجهاد في سبيل الله » وقد نجح « خالد » حتى أبعد الحدود في تحقيق مبدأ (الحرص على العنصر العربي) مادياً ومعنوياً . وقد وقعت بعض الانتهاكات لهـــذا المبدأ (كمقتل مالك بن نويرة – أو مقتل عبد العزى بن أبي رهم ولبيد بن جرير في الإغارة على مصيخ بني البرشاء) ولكن هذه الانتهاكات تدخل في إطار (الفاعلية المطلقة للحرب) والتي كان يحرص خالد على تطبيقها ، وكان احتمال حدوث الأخطاء في مثل هذه الحالات النادرة أقل خطورة من قضية (الحرص على العنصر العربي) .

٦ – استراتيجية الحرب التشتيتية :

بدأ خالد « حروب الردة » بتنفيذ تعليمات الخليفة (أن يبدأ بطيء ، ثم يتوجه إلى بزاخة ، ثم يثلث بالبطاح) وعند الانتهاء من « أُم زمل » توجه خالد « لحرب مسيلمة » وقد برهنت هذه التجربة على فاعليتها في إعاقة كل تعاون أو اتصال بـــين قوى الردة ، مما ضمن لخالد تدميرها على التتابـع .

وعند فتح « الحيرة » نظم « خالد » قوتـه على شكل خمس مجموعات قتالية ، تولى هو قيادة مجموعة منها ووجه المجموعات الباقية لقتال أربعة مجموعات من الأعداء (انظر فتح الحيرة) وبذلك أصبحت قوى أعداء المسلمين « مشتتة » وغير قادرة على تنسيق التعاون فيما بينها ، وسقطت بسرعة .

وحاول أعداء المسلمين من « فرس – وروم » تنظيم مقاومات قوية بالتعاون مع حلفائهم من نصارى العرب الغساسنة والمناذرة، لكن خالداً استطاع باستمرار إعاقة كل تعاون عن طريق تطوير حرب الحركة للهجوم على أقرب القوى اليه والانتقال إلى بقية القوى وتدميرها على التتابع أو في توافت واحد بواسطة مجموعات قوى مستقلة . وفي الوقت ذاته فقد كان عمل خالد (في جنوب العراق) وعياض (في شماله) نموذجاً للحرب التشتيتية التي أمكن لها إرغام العدو على خوض معارك بقوى متفرقة. وكانت أساليب الحرب التشتيتية متوافقة مع قدرة قوات العرب المسلمين (الخفيفة والسريعة) بحيث كان بالمستطاع دائماً تنسيق التعاون بين هذه القوات (على نحو ما حدث من تعاون بين عياض وخالد في دومة الجندل) في حين كان الفرس والروم وأنصارهم من العرب (بحكم تنظيمهم وخصائص قواتهم) في حالة عجز عن تنسيق التعاون . وفي « موقعة الفراض » ورغم تجمع قوات كبيرة من الروم ومسالح الفرس والعرب وقفت قوى التحالف وهي عاجزة عن خوض المعركة في مخطط واحد ، وكان السبب الأساسي هو عدم وحدة القيادة في حين كانت قوات المسلمين خاضعة في مسرح العمليات لقيادة واحدة هي قيادة « خالد بن الوليد » وبذلك أمكن تنسيق التعاون لتدمير القوات المتحالفة ، ضد قوات المسلمين . وواضح ان نجاح خالد في تطبيق استراتيجية الحرب التشتيتية إنما يعود إلى مجموعة من العوامل تعود إلى خصائص « قوات المسلمين » وإلى « العقيدة

القتالية » للمسلمين بحسب ما حددتها العقيدة الدينية الاسلامية ، وبحسب ما أمكن تطبيقها في عهد الرسول ﷺ ، ولكن ذلك لا ينتقص من قدرة خالد الذي استطاع تطوير الأسس والمبادىء لمجابهة (متغيرات مسارح الأعمال القتالية) .

٧ – استراتيجية الهجمات الوقائية :

تظهر مراجعة أعمال « خالد » القتالية أنه كان من المحال علية تحقيق مثل تلك المنجزات الرائعة ، والوصول إلى مثل تلك الانتصارات الخالدة ، لو لم يلتزم باستراتيجية الهجمات الوقائية في كثير من الأحيان – إن لم يكن في معظمها – إذ أن الالتزام بهذه الاستراتيجيـــة هو الذي ساعد « خالد » على استخدام بقية الإستراتيجيات وتطويرها . فتطبيق استراتيجية الهجوم غير المباشر ، والانطلاق من قاعدة قويـــة ومأمونة وما تبع ذلك من تطبيق لمبـادىء الحرب ، كل ذلك قـد استند إلى قاعدة « الهجمات الوقائية » فكان « خالد » في كل أعماله أكثر مرونة وأكثر سرعة للقاء قوات أعدائه ، وإجهاض استعدادهم القتالي قبل إكماله ، وقد كان من الصعب على «خالد» تحقيق النجاح في هذه الإستراتيجية لو لم يطبق بمهارة عاليـــة مبادىء الحرب (المباغتة والمبادأة الخ ..) ويظهر ذلك التعقيد الكبير الذي تميزت بهأعمال خالد القتالية بقدر ما يظهر الكفاءة العالية التي ميزت قيادة « خالد » والتي جعلته قادراً على مجابهة كل المواقف بما يناسبها من حلول .

ويبرز من جديد دور العقيدة القتالية الاسلامية في إبراز كفاءة خالد القيادية ، فهذه الاستراتيجيات المتباينة هي من بعض ما تضمنته العقيدة القتالية للمسلمين ، وإن استعراض أعمال القادة المسلمين تبرز الناظم المشترك الذي وحد بين أساليب القادة جميعاً ، وجعلهم يعملون ، رغم تباعد مسارح العمليات فيما بينهم ، ورغم الفوارق الفردية في كفاءاتهم ، بأساليب واحدة وطرائق موحدة .

لقد كان « خالد » يتوقع باستمرار قيام قوات العدو بتنظيم المقاومات ضده، وكانت عناصر استطلاعه تأتيه بأخبار تحركاتهم واستعداداتهم ، فكان يسرع لغزوهم في عقر دارهم ، فيعمل على إذلالهم، والتضييق عليهم، وحرمانهم من حرية العمل العسكري، وكانت تلك بعض فضائل (استراتيجية الهجمات الوقائية) .



ب ــ في مبادىء الحرب

١ ــ المباغتة :

عندما توجه خالد لقتال (مسيلمة) باغت أعداءه، وجاء بالأسرى وسألهم : متى سمعتم بنـــا ؟ قالوا : « ما سمعنا بك ، وما شعرنا بك » . وعندما خرج « ابن الآزاذبة » من الحيرة للقـــاء خالد ، ودفع ابنه لتحويل مياه الفرات ، أسرع خالد ، فباغت قوات أعدائه عند « فم العتيق وأبادهم » ثم أسرع من فوره ، يسبق الأخبار ليباغت « ابن الآزاذبة » في مأمنه . وعندما علم « خالد » بتجمع قوات تغلب في « المثنى ــ والزمل » « أقسم على أن يبغتن تغلب في دارها » وكان « خالد » يستخدم ظلمة الليل ستاراً له ، وغطاء لتحركه حتى يباغت أعـــداءه في إغارات قوية ومدمرة . وكان ظهوره في « سوى » وثنية العقاب ، وبين قبائل غسان مباغتاً لأعدائه مما كان يضمن له حسم الصراع بسرعة . ولكن المباغتة عند « خالد » لم تقف في الواقع عند حدود (المباغتة الزمنية أو المكانية) وإنمـــا تجاوزتها إلى أشكال أكثر تعقيداً ، فالتنظيم القتالي الذي وضعه خالد في الحيرة ، والتنظيم القتـــالي

لمعركة اليرموك قد أذهلا أعداء المسلمين وكان أثر المباغتة فيهما ، وفي أمثالهما ، ما يمكن اعطاؤه اسم « المباغتة الاستراتيجية » ثم هل كان تحرك « خالد » من العراق إلى الشام وظهور القوات في مؤخرة الروم أكثر من مباغتة على مسرح العمليات ؟ وهل كان دعم « خالد » لقوات « عمرو بن العاص » في « أجنادين » أكثر من مباغتةعلى مسرح العمليات أيضاً؟.وقد لا تكون هناك حاجة لابراز دور « المباغتة » فيما حققه « خالد » منانتصارات لا سيما عندما كان « خالد » يحرص على تنفيذ المباغتة المركبة (المباغتة الزمنية والمكانية) مثل إغاراته الليلية التي يتم فيها الهجوم من اتجاهات ثلاثة إذ كان يتم له في مثل هذه العمليات إبادة قوات أعدائه إبادة كاملة .

٢ – أمن العمل :

كان لقوات العرب المسلمين أساليبها المميزة في تنفيذ مبدأ « أمن العمل » سواء في جمع المعلومات عن العدو والأرض والتكون السكاني « الديموغرافي »أو في نقل المعلوماتوتعميمها على مختلف المستويات ، والظاهرة البارزة في تدابير « خالد » هي في استخدام مجموعة من الطرائق الملائمة لكل موقف « أمن العمل للقوات أثناء المسير أو أثناء التوقف أو أثناء الاشتباك والمعركة » وكانت هذه الطرائق تضمن تحقيق هدف مزدوج :

١ – حماية قوات المجاهدين في سبيل الله من كل مباغتة .

٢ ـ ضمان الشروط المناسبة لتحقيق المباغتة ضد أعداء المسلمين .

وقد كان لذلك دور حاسم في إفادة خالد من « حرية العمل المطلقة » مقابل حرمان قوات الأعداء من « حرية العمل » . وليست قضية أمن العمل بعد ذلك مجرد قضية جمع معلومات لمعرفة نوايا العدو وأعماله ، وإنما كانت بالنسبة لخالد بن الوليد قضية التدابير المضادة لاحباط نوايا العدو وتدمير قواته ، فإذا ما تم وضع هذه القضية في الظروف الزمنية التي تم بها تنفيذ الأعمال القتالية فستظهر الصعوبات التي كانت تجابه خالدبن الوليد وستظهر معها الكفاءة العالية التي تميزت بها قيادة خالد في مجابهة تلك الصعوبات .

لقد كان مسرح الأعمال القتالية لخالد بن الوليد ـ في كل حروبه ـ تحت سيطرة قوات أعدائه ، وكان لهؤلاء الأعداء في جميع الحالات هيمنتهم المادية والمعنوية على منطقة العمليات ، فكان أنصار أعداء المسلمين أقوى من أنصار المسلمين ، وعلاوة على ذلك فقد كان لتلك الجيوش ميزات عملها في مناطقها وعلى مقربة من قواعدها ، وهذا ما كان يفرض على خالد ـ وعلى إخوانه من القادة والمجاهدين ـ اتخاذ كل التدابير الضرورية للمحافظة على مبدأ « أمن العمل » وجمع المعلومات بأنفسهم وتدقيق تلك المعلومات ، ثم اتخاذ القرارات المناسبة والقيام بالأعمال الضرورية لتحقيق النصر ، فإذا ما تم بعد ذلك مراجعة الأعمال القتالية لخالد . فستظهر عندها « القيمة الحقيقية » لتلك

الانتصارات والتي لم تكن سوى ثمرة لجهـــد متواصل لا يعرف التوقف أو الانقطاع ، مع تضحيات لا حدود لهـا للوصول إلى « هدف الحرب » . ويبقى أفضل برهان – بعد ذلك – عـــلى التزام خالد بمبدأ « أمن العمل » هو (في عدم تعرض القوات التي كان يقودها لأي نكبة أو هزيمة) وهنا يبرز سؤال هو: هل كان تطبيق مبدأ « أمن العمل » بالنسبة لخالد بن الوليـد ، قضية عارضة أو طارئة ، أم كان نتيجة تخطيط محكم؟ إن الإجابة تكمن في أسلوب خالد القيادي ، فقد كان خالد يعمل بعد كل معركة على إعادة تنظيم قواته ، وتعيين قوة بقيادة أكثر قادتـه كفاءة من أجل حماية المناطق التي يتم تحريرها ، مع إرسال مراكز المراقبـة المتقدمة « المسالح » ودفعها حتى أقصى الحدود بهدف توفير الفرصة المناسبة للرصد والانذار واتخاذ التدابير القتاليـة المضادة ، مع إرسال الأنصار للتوغل ونقل المعلومات ، علاوة على فرض شرط في عقود الصلح ينص على عدم تقديم أي دعم ممن تم مصالحتهم قد يساعد أعداء المسلمين ، وبذلك ، يتم «تحييد» المتطرفين مع تجنيد المعتدلين لخدمـة القوات المسلمين في مجال « أمن القوات » .

٣ – الحركية :

يعترف « فن الحرب » لخالد بن الوليد أنه من أبرز قادة الدنيا في تطبيق مبدأ « حرب الحركة » وقـــد كانت حروب العرب المسلمين كلها من نوع « حرب الحركة » ولكن حروب « خالد »

تميزت بصورة خاصة بتطوير أساليب « حرب الحركة » وتنفيذ هذه الأساليب في إطار متكامل مع مجموعة من الأسس الاستراتيجية ومبادىء الحرب. ولقد انطلق « خالد » بعد وفاة الرسول ﷺ لحروب الردة ، وأمضى بها سنة كاملة « سنة ١١ هـ » ثم انتقل لمسرح عمليات العراق .

وخلال عام واحد (السنة الثانية عشرة للهجرة) خاض خالد أكثر من عشر معارك رئيسية على امتداد شواطىء الفرات ولم تكد هذه المعارك تبلغ غايتها حتى كانت شواطىء الفرات ودجلة قد أصبحت خاضعة لقوات العرب المسلمين ، وأمكن إزالة مسالح « فارس » وفرض هيمنة المسلمين ، ثم انتقل خالد بعد ذلك — إلى الشام — ولم تكن مسيرته الكبرى عبر الصحراء الشامية — التدمرية — مسيرة سهلة ، وإنما كان فيها قدر كبير من الخطر ، ثم انتهت المسيرة بمعارك مستمرة وأخذ بعضها برقاب بعض إلى أن أمكن حسم الصراع في مجموعة من المعارك الحاسمة (اليرموك وأجنادين وفحل) واستمرت حرب الحركة من أقصى سورية إلى أقصاها ، وحتى إلى ما وراء الدروب .

(مسيرات طويلة ، ومعارك استنزاف ، ومعارك حاسمة ، ضمن إطار من تدابير الأمن الدقيقة ، تلك هي حروب خالد بن الوليد) وكان يتم تنفيذ المسيرات في الليل والنهار ، كما كان يتم تنفيذ المعارك في مناطق متباعدة ، بسرعة عادية أحياناً ، وبتسارع مذهل في أحيان أخرى . كالسيل الذي ينحدر قوياً

مدمراً ، ليزيل أمامه كل العقبات ، يتجمع أمام المقاومـــات الكبيرة ، ويتفرق للمطاردة والقضاء على المقاومات الصغرى، ثم يتابع تجمعــه ليتفرق من جديد . ولعله ليس هناك ما هو أبدع من هذه الصورة التي رسمها خالد لحرب الحركة ، والتي أصبحت نموذجاً خالداً تتناقله الأجيال .

٤ ـ المبادأة واستخدام القوة الهجومية

لم يكن حب المغـامرة هو الذي يدفع خالداً لتطوير حرب الحركة باستمرار ، وتصعيد الأعمال القتالية بصورة دائمة ، وإنما هو التقدير الصحيح لموقف قوات المسلمين وقوات أعدائهم . فقد كانت قوات أعداء المسلمين متميزة بمجموعة من الخصائص أبرزها التفوق العددي الساحق ، والتفوق بالوسائط القتالية ، والتفوق في مجال الخبرات القتاليـــة ، والتفوق في إمكانات الإمداد الإداري ، والتفوق بالعمق الجغرافي « العامل الجيواستراتيجي » ولم يكن أمــام خالد سوى الإفادة من العوامــل المعادلة ـ أو المعاوضة ـ المتوفرة أمامه وأبرزهـــا العقيدة القتالية المتفوقة للمسلمين ، والروح المعنوية العالية للمجاهدين في سبيل الله . ومن هنا ، فقد كان لزامــاً على خالد حرمان أعدائه من ميزاتهم وخصائصهم ، وكانت وسيلتــه الأساسية (الإمساك بالمبــادأة واستخدام القوة الهجوميــة للمسلمين) ولهذا نراه ما يكاد يفرغ من معركة حتى يسرع لتنفيذ معركة أخرى في موقع بعيد وفي زمن غـير متوقع ، وهكذا كان يعمل أبــداً على فرض مواقف

جديدة ومعقدة تحرم الأعداء من حرية العمل. وفي هذا الإطار «إطار إمساك خالد بالمبادأة وحرمان خصومه من حرية العمل» كان بالمستطاع تجزئة الحرب إلى مجموعات من المعارك المتتالية التي يكون للمسلمين فيها قدرة على حسم الصراع لمصلحتهم، وتدمير قوات الأعداء على التتابع، دون السماح لهم بفترة من الهدوء تمكنهم من إعادة تنظيم قواتهم، ولم تكن أعمال الفرسان في المطاردة لتدمير فلول قوات العدو تدميراً تاماً سوى استثماراً للقوة الهجومية التي انفرد المسلمون بها. وقد يكون من السهل - نسبياً - وضع العدو أمام موقف غير متوقع، كما أنه قد يكون من السهل الاحتفاظ بالمبادأة في معركة أو أكثر، ولكن ليس هناك سوى عدد نادر جداً من القادة الذين استطاعوا الإمساك بالمبادأة دائماً، مع حرمان أعدائهم باستمرار من حرية العمل. **ويبقى « خالد » في هذا المجال نموذجاً رائعاً للقائد الذي ما تخلى عن المبادأة أبداً، والذي استخدم القوة الهجومية كأفضل ما يمكن أن يطمح إليه قائد.**

ولعل احتفاظ «خالد» بالمبادأة هو الذي كان يضعه باستمرار في موقع التفوق على خصومه وأعدائه وهو الذي يظهره كعملاق أمام مجموعة من الأقزام الذين سلبت منهم إرادة القتال وحرية العمل.

٥ – مبدأ الاقتصاد بالقوى :

يمكن استخدام مقاييس مختلفة وقيم متباينة بهدف تقويم مبدأ « الاقتصاد بالقوى » على نحو ما طبقه « خالد بن الوليد » في حروبه، المقياس الأول هو تنفيذ المسيرات الشاقة وخوض الأعمال القتالية المتتالية ثم الاستعداد في كل مرة لاستئناف المعارك ومتابعة المسيرات، والمقياس الثاني هو دخول العراق بقوة ١٨ الف مجاهد، ثم إنهاء الأعمال القتالية بزيادة حجم القوة المقاتلة للمجاهدين رغم ما تعرضت له من خسائر وذلك بفضل انضمام مجموعات من المجاهدين الذين انضموا إلى قوة المسلمين. والثالثة هي ابتعاد خالد عن « حروب الحصار وحروب الاستنزاف » التي قد تضعف قوة المجاهدين المادية والمعنوية. والرابعة هي حشد القوى والوسائط اللازمة لكل هدف، ووضع المخطط القتالي للمعركة في حدود الامكانات المتوافرة. وليست هذه هي كل المقاييس أو المعايير الممكنة ولكنها، بعضها، وهي تبرهن كلها على مقدار النجاح الذي حققه « خالد » في مجال تطبيق مبدأ « الاقتصاد بالقوى ». وقد يكون من الصعب بعد ذلك تقويم أهمية منجزات « خالد » في تطبيق هذا المبدأ دون مقارنتها مع ما حدث من تشتيت للقوى ومن استنزاف للجهد في صفوف قوات الأعداء، فقد استطاع « خالد » في العراق تدمير قوات تزيد على عشرة أضعاف قوته – كحد أدنى – وفعل مثل ذلك في مسرح عمليات الشام، فإذا ما تم وضع حجم القوى التي أمكن

لخالد تدميرها فستظهر عبقرية خالد الحقيقية في تنفيذ مبدأ الاقتصاد بالقوى .

لقد اتفق المؤرخون جميعاً على اعتبار معارك « اليرموك والقادسية ونهاوند » هي المعارك الحاسمة التي حررت بلاد الشام والعراق من الروم والفرس ، متجاوزين في ذلك ما سبق هذه المعارك من وقائع وأحداث ، وفي الواقع فقد كانت معارك خالد في العراق والشام هي التي مهدت لتلك المعارك الحاسمة ، ومن المعروف أن قوات الفرس كانت أكبر بكثير مما تم زجه في اليرموك والقادسية ، ولكن معارك الاستنزاف التي سبقت المعارك الحاسمة قد أضعفت إلى حد كبير قدرة الفرس بقدر ما أضعفت قدرة الروم . وجاءت المعارك في اليرموك والقادسية ثمرة لكل الجهود التي تميزت عند المسلمين « بالاقتصاد بالقوى » بقدر ما تميزت عند الروم والفرس « بتشتيت القوى وتبديدها ». وبذلك أمكن الوصول إلى نوع مقبول من تفوق قوى الأعداء « واحد إلى عشرة تقريباً » في حين كان باستطاعة الفرس والروم حسم الصراع في البداية بتفوق واحد إلى مائة ، وهو تفوق قد يكون من المحال على المسلمين التعامل معه . وهكذا فإن دور خالد في المعارك السابقة « للمعارك الحاسمة » هو أكبر بكثير من دوره في تلك المعارك الحاسمة . وعلى هذا يمكن القول – دون مبالغة – إن مبدأ الاقتصاد بالقوى عند خالد بن الوليد قد كان في طليعة المبادىء التي حولت التفوق المطلق عند أعداء المسلمين إلى تفوق نسبي . وكان في ذلك النصر الحقيقي للمسلمين .

٦ – المحافظة على الهدف :

ليس من الضروري هنا التعرض « لهدف الحرب » أو « غاية السلم » في أعمال خالد القتالية، ذلك أن العقيدة القتالية للمسلمين قد حددت هـذا الهدف بالاعتماد على أسس العقيدة الدينية ومبادئها . ولكن بالمستطاع التحدث عن ممارسات « خالد ابن الوليد » في مسارح العمليات « للمحافظة على الهدف » لقد كان هدف « خالد » في مسارح الأعمال القتالية هو « التدمير التام للقوات المعادية » و « التعامل مع أهالي البلاد بما لا يتعارض مع إقامة سلم دائم » وقد يكون ذلك هو أعلى مفهوم للسياسة الاستراتيجية في مفهومها الحديث . وضمن هذا الاطار ، كان يحدد خالد لكل معركة أساليبها وطرائقها . وقد يكون من المذهل ملاحظة ذلك التشابه الغريب في كل نتائج معارك خالد بن الوليد « تدمير تام للقوات المقاتلة المعادية للمسلمين ، وعقود صلح مع أهالي البلاد ، وتعاون وثيق بين قوات المسلمين وأصحاب البلاد » وقد يكون من الطبيعي بعد ذلك تأكيد التشابه حتى في نصوص اتفاقيات الصلح ومضامينها ، وليست العملية هي مجرد تكرار للأعمال القتالية ، فقد كانت لكل معركة ظروفها الخاصة ، سواء في طبيعتها الجغرافية أو في حجم القوى المتصارعة أو حتى في التكون البشري للقوات المحاربة ، ولكن رغم ذلك فقد جاءت النتائج متشابهة ، ولعل هذا هو أوضح برهان على محافظة خالد والتزامه « بهدف الحرب

وغاية السلم » . وليست القضية هنــا هي مجرد « **وضوح في الرؤية** » فحسب بقدر ما هي قضية تحقيق التوازن الدقيق بين « هدف الحرب وغاية السلم » وذلك هو الدور الدقيق لخالد على مسرح العمليات .

لقد عمل « خالد » تحت قيادة الرسول ﷺ في فتح مكة — ورافقه في غزواته بعد ذلك . واستوعب منه أساليب العمــل لتحقيق مثل هــذا التوازن الذي تطغى فيه « غاية السلم » على « هدف الحرب » والذي يتم فيه تحقيق « هدف الحرب » مــن أجل الوصول إلى « غاية السلم » . فكان من نتيجة ذلك أن يبقى ذلك الأساس الثابت والراسخ في أعمال خالد القتالية كلهــا .

٧ – المؤخرات – والشؤون الادارية :

يأخذ كثير من الكتاب حادثة اصطحاب عدد من الإبــل في مسيرة خالد من العراق إلى الشام كبرهــان على اهتمام خالد بالشؤون الإدارية . ويأخذ كثير من الكتاب بالتنظيم القتالي في اليرموك وتنظيم معسكر « النساء والشؤون الادارية » كبرهان أيضاً على اهتمام « خالد » بعمل المؤخرات والشؤون الإدارية في ميـــادين القتال . ولكن تنظيم المؤاخرات والاهتمام بالشؤون الإدارية يتجاوز عند خالد هذه الظواهر أو هــذه الأحداث ، وقد يكون من المهم ملاحظة اهتمام خالد بالمؤخرات من خلال تنظيم الجهد لضمان استمرار الإمـــداد والتموين وضمان أمن

المؤخرات في الوقت ذاته . ولقد كان انتقاء « الحيرة » وجعلها قاعدة لعمليـات خالد ، ثم الانتقال إلى مواقع المعارك لتنفيذ الأعمال القتالية والعودة بعد ذلك مباشرة إلى الحيرة هو لتحقيق هذا المبدأ المزدوج « الأمن والشؤون الإدارية » . وكان «خالد» يستخدم عامل « الشؤون الإدارية » في بعض الأحيان كحافز للقتال على نحو مــا فعل في « ذات السلاسل » عندما خاطب جنده بقوله : « ألا انزلوا وحطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء ، فلعمري ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين » .

وجدير بالذكر أن قوات العرب المسلمين لم تكن مستعدة لتثقل تحركاتها بأعباء الشؤون الإدارية على نحو مـا كانت تفعله جيوش الفرس والروم ،وكانت مستعدة للتضحية بعامل الشؤون الإدارية لحساب متطلبات حرب الحركة وللمحافظة على مرونة القوات وخفة حركتها ، ولهذا فإنهـــا كانت تعتمد في تنظيمها الإداري أساساً على قـدرة التعايش بمـا هو متوفر في مسارح العمليات . وكان في ذلك حرمان لأعداء المسلمين من مواردهم الإداريــة ، ويظهر في أعمال خالد القتاليــة تعيين مفارز خاصة واجبها تأمين المتطلبات الإدارية ضمن حدود معاهدات الصلح ، ومع ضمان تنفيذ مبدأ (الاستقرار على المؤخرات) .

مهما كان عليه الأمر ، فمن الواضح تماماً أن القوات التي قاتلت « تحت راية العقاب السوداء » التي حملهـا خالد في حروبه ، لم تشعر باضطراب على مؤخراتهـا ، ولم تصدر عنها شكوى تشير

إلى تقصير في تنظيم الشؤون الإدارية ، وهذا يبرهن أيضاً ، وبشكل غير مباشر ، على مدى اهتمام خالد باستقرار المؤخرات في منطقة كان نفوذ العدو فيها قوياً ، وعلى مـــدى اهتمام خالد بالشؤون الادارية لتأمين قوات ضخمة بالنسبة لمـا عرفه العرب وما عهدوه في تلك الحقبة التاريخية .



الفصل الثالث

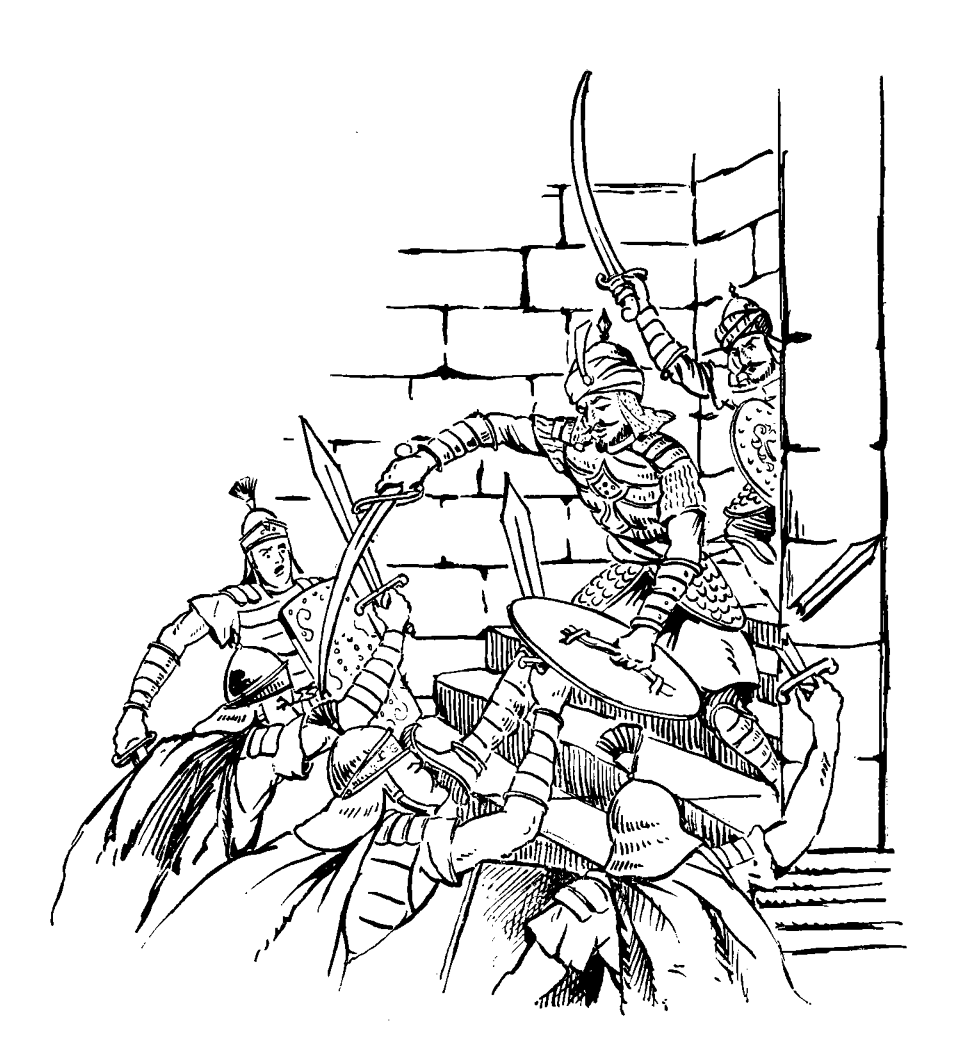
قيادة خالد بن الوليد

أ – خالد بن الوليد وفن القيادة

١ – العنف في القضاء على أعداء المسلمين .
٢ – التحريض على الجهاد .
٣ – الشجاعة في مواجهة الخطر .
٤ – القرارات الصحيحة .
٥ – حماية المرؤوسين – وإدارة الحرب .

ب – خالد بن الوليد وقوات العرب المسلمين

١ – الاستعداد الدائم للقتال .
٢ – الروح المعنوية العالية .
٣ – الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب .
٤ – الانضباط والطاعة .
٥ – خالد ، وحرية العمل .



أ ـ خالد بن الوليد وفن القيادة

« ما أنا بالذي أعصي أمير المؤمنين »
(خالد عندما عزله عمر)

١ – العنف في القضاء على أعداء المسلمين :

كانت « بني حنيفة » من القبائل العربية الكبيرة ، ولهذا فقد كانت زعامة « مسيلمة » لها وارتدادها تمثل أكبر خطر على المسلمين، وبعد حرب « خالد » لها لم يبق لهذه القبيلة دور يذكر في الفتوحات الاسلامية ، فقد عمل خالد على إبادة المقاتلين إبادة تامة ، ويتأكد ذلك من محادثات « مجاعة » مع « خالد » وخدعته له بإخراج النساء إلى الحصون والتظاهر بأنهن من الرجال المقاتلين ، وعندما فتحت الحصون لم يجد خالد سوى النساء والأطفال . وكان « خالد » في معاركه كلها يسعى للقاء قادة الأعداء ويعمل على إبادتهم وقتلهم منذ بداية الاشتباك . فقتل « هرمز » في « ذات السلاسل » وقتل « قارن » في « وقعة المذار » وقتل « مالك بن قيس » في « أليس » ، وقتل في هذه

المعركة كل من حمل السلاح، وفاء لقسمه الذي أقسمه عندما اشتدت المعركة وكثر قتلى المسلمين فقال: « **اللهم إن لك عليّ إن منحتنا أكتافهم الا أستبقي منهم أحداً قدرنا عليه، حتى أجري نهرهم بدمائهم** » فأصبح نهر أليس منذ ذلك الوقت وهو يحمل اسم « نهر الدم ».

وعاد خالد في معركة « دومة الجندل » فبدأها بقتل « أكيدر بن عبد الملك – و – الجودي بن ربيعة » وقذف بهما وبالأسرى بعد إبادتهم على أبواب الحصن. وفي مصيخ بني البرشاء نظّم خالد إغارته الليلية بحيث أمكن له إبادة أعدائه إبادة تامة. وتكررت عملية الإبادة بكاملها في « الثني والزميل » وأباد المسلمون في الفراض مائة ألف مقاتل من تجمع « الفرس والروم والعرب المتنصرة ». وطبق « خالد » الأسلوب ذاته في « سوى » و « اليرموك » و « أجنادين » وفي كل موقعة خاضها بعد ذلك. وفي هذا المجال يمكن اعتبار « خالد بن الوليد » نموذجاً رائداً « في استخدام العنف للقضاء على أعداء المسلمين » وقد يكون بحث « خالد » عن « الفاعلية المطلقة للحرب » واستخدام مبدأ « حرية العمل العسكري » حتى أبعد الحدود هو سبب هذه الظاهرة. وقد يكون حرصه على تحقيق مبدأ « الحرص على العنصر العربي – دعامة الاسلام » هو سبب آخر أيضاً، إذ أنه لم يكن هناك وسيلة لتحطيم التفوق الساحق بالقوى لأعداء المسلمين إلا بهذه الوسيلة. ومهما كان عليه الأمر، فإن البحث عن « الفاعلية المطلقة في الحرب » وتجاوز كل الحدود. كان وسيبقى

أبداً هدف السياسة الاستراتيجية عبر التاريخ[1] ويمكن هنا أيضاً تجاوز الظواهر للوصول إلى النتائج ، والتساؤل : ترى هل كان باستطاعة « خالد » حسم الأعمال القتالية ، بمثل تلك السرعة ، وتصعيد الأعمـــال القتالية على جبهات الشام والعراق . لولا استخدام الفاعلية المطلقة في الحرب ؟ ثم هـــل كان بالمستطاع الوصول إلى تحويل مسيرة الصراع وجعل ميزان القوى - نسبياً - في حدود قدرة العرب المسلمين لولم يتم استخدام تلك الفاعلية ؟

الحرب هي الحرب ، والسياسة الاستراتيجية هي توازن بين « غاية السلم » و « هدف الحرب » وقد استطاع « خالد » يقيناً الوصول بالحرب إلى فاعليتها المطلقة بقدر مـــا استطاع تحقيق التوازن من أجل إقامة سلم لا يتعارض مع فاعلية الحرب .وكان ذلك النجاح هو المثل الأعلى لما يطمح قائـــد في تحقيقه والوصول اليه. ولئن كان هناك من يجد في أساليب « خالد » قسوة تتعارض مع المفاهيم الحضارية ، فلينظر إلى ما يتعرض له « عالم الحروب» في ظل الحضارة التقنية لعالم « القرن العشرين » .

---

(١) وهل يمكن تفسير استخدام القنابل الذريـــة في هيروشيما وناغازاكي لاخضاع اليابان في الحرب العالمية الثانية سوى تطوير لهذه الظاهرة من أجل حسم الصراع المسلح ، ومن أجل تحقيق مبدأ الاقتصاد بالقوى ؟ ثم هل كانت أعمال الإبادة الوحشية - بما فيها أعمال الإبادة بأسلحة التدمير الشامل الكيميائية - في فييتنام ، ثم في الجزائر ، وفي الصراع العربي - الاسرائيلي ، إلا نمـــاذج متقدمة لتطوير مبدأ « الفاعلية المطلقة في الحرب ».

٢ - التحريض على الجهاد :

كان « لخالد بن الوليد » أسلوبــه المميز في « التحريض على الجهاد »إذ أنه لم يكن يكثر من الحديث، وكان يكتفي بالتقاليد التي سنها الرسول الأعظــم ﷺ ، فكان يكلف المسلمين بقراءة سورة الجهاد « وهي الأنفال » ثم ينطلق بهم إلى المعركة ، وكان التحريض على الجهــاد عنده يأخذ شكل « أوامر قتــال » أو تحديد « واجب » ففي معركة « خالد » مع المرتدين في «البطاح» قال خالد لجنده: «امتازوا لنعلم بلاء كل حي» وفي ذات السلاسل، قال : « جالدوهم على الماء ، فلعمري ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين » . وفي فتح الأنبار قال خالد لجنده : « ارموا عيونهم ولا توخوا غيرها » وفي الفراض ، دفع « خالد » جنده للمطاردة وقال لهم : « ألحوا عليهم ولا ترفهوا عنهم » وفي فتح « دمشق » قــال خالد : « إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا إلينا . وانهدوا للباب » .

ولكن ، إذا كان « خالد » قليل الحديث عن المعركة ، فإنه كان كثير العمل لإعداد جنده لها، لقد كان يتقدم الصفوف لإثارة الحماسة وللتحريض على الجهاد ، وكان يسرع إلى كل موقع خطر ، كان في مقدمة المسير عند التقدم ، ومع المؤخرة « الساقة » عند الانسحاب أو التراجع ، وكان في كل مكان من المعركــة أثناء الاشتباك ، فكان الجميع يشعرون بوجوده أبداً بينهم ، وكان ذلك أسلوبــه الأمثل في التحريض على الجهــاد . ليس ذلك

فحسب ، بل إن تنظيمه للمعركة ، وتوزيعه للقوات ، وتحديد الواجبات بدقة لا سيما عند العمل على محاور مستقلة أو عند تنفيذ واجبات مختلفة . وكذلك تنسيق التعاون بين القوات بعضها مع بعض ، علاوة على ما تميزت به شخصية خالد القيادية من الكفاءة والقدرة ، كل ذلك كان في جملة العوامل التي يمكن إضافتها لأسلوب خالد « في التحريض على الجهاد » . ولعل « خالداً » قد عرف الرصيد المعنوي الكبير لقواته ، وعرف إيمان المجاهدين في سبيل الله بحتمية انتصارهم ، فأعرض عن الأسلوب الخطابي واكتفى بالأسلوب العملي – الذي يتوافق مع طبيعته أصلاً ، والذي يستجيب لتكوينه .

٣ – الشجاعة في مواجهة الخطر :

قد يكون من الصعب جداً انتقاء موقف محدد للبرهان على شجاعة « خالد » في مواجهة الخطر ، ذلك أن أعمال « خالد » القتالية كانت « اقتحاماً للخطر » ليس ذلك فحسب ، وإنما كان « خالد » يعيش في أموره الخاصة « حياة الخطر الدائم » فذهابه للحج على السمت وضربه في الصحراء هو نوع من اقتحام الخطر ، ومسيرته من العراق إلى الشام عبر الطريق الذي اختاره –تحمل قدراً غير قليل من الخطر . واندفاعه بعد ذلك إلى مقدمة الصفوف ، للقضاء على قادة أعدائه هو الخطر ذاته ، ثم هل هناك برهان على الشجاعة في مواجهة الخطر ، أكبر من أن تترك تلك الأخطار آثارها على جسد « خالد » (الذي لم يبق فيه موضع

شبر إلا وفيه ضربة سيف أو رميـــة سهم أو طعنة رمح) .
وليست هذه الشجاعة هي نوع من الشجاعة الجسدية المستهترة ، والتي تسعى إلى الانتحار ، أو تلك التي لا تستطيـع تقويم أهمية الخطر ، وإنما هي الشجاعة الروحيـة – المعنوية – التي تعرف بدقة هدفها من الحياة، والتي تدرك بوعي تام مقدار النجاح الذي يمكن تحقيقه من خلال اقتحام الخطر ، وواضح أن هذه الشجاعة الروحية – المعنوية – هي التي كانت تدفع خالداً لتحمل كامل مسؤوليته في إدارة الحرب ، وهي التي كانت تدفعـه لرفض كل موقف يتعارض مع متطلبات (الفاعلية القصوى) . وهل هناك شجاعة معنوية أكثر من الخضوع لأوامر الخليفة ومواجهـــة المسلمين في موقف يمكن اعتباره – مهيناً – بحسب المصطلحات الحديثة في حين يمكن اعتباره نموذجاً أعلى للشجاعة عند **تقويمه** من وجهة نظر التغلب على الذات ، وعند **تقويمه** من وجهة نظر المصلحة العامة ، وليس ذلك فحسب، وإنما تتمثل تلك الشجاعة عند مجابهة « خالد » لأمير المؤمنين « عمر » – ومبادأتـــه بقوله : « لقد شكوتك إلى المسلمين ، وبالله إنك في أمري غـير مجمل يا عمر » ان « خالداً » يتهم « عمر » وهو « أعـــدل رجل عرفته الدنيا » يتهمه بالظلم « وبالله إنك في أمري غير مجمل يا عمر» ويقف أمير المؤمنين أمام هذا الاتهام ، فيرد على خـالد بقوله : **« يا خـالد ! والله إنك عليَّ لكريم ، وإنك إليَّ لحبيب ، ولن تعاتبني بعد اليوم في شيء »** . ومن الممكن هنا القول إن المعرفة

القديمة والتي تعود إلى الطفولة بين « عمر » و « خالد » قد سمحت « لخالد » بمثل هذه المجابهة ، ولكن « عمر » في طفولته هو غير عمر في شبابه وإسلامه ، وهو خليفة أيضاً غيره عندما كان بعيداً عن موقع المسؤولية. ولكن الاسلام علم الرجلين المشتركين في المسؤولية طريقة المجابهة المسؤولة التي سمح بها الاسلام عند وقوع الظلم . ولم يكن الهدف في الحالة هذه هو « إلحاق الظلم » بقدر ما كان « الاجتهاد والتأويل » لما فيه خير المسلمين .

٤ – القرارات الصحيحة :

وتظهر شجاعة « خالد » قبل كل شيء في قراراته الصحيحة. فالقائد هو « القرار » وهو تحمل المسؤولية بكل ما ينتج عن هذا القرار من فشل أو نجاح ، وقد كان على « خالد » أن يجابه في كل يوم من حياته القيادية أن يتخذ أكثر من قرار تتعلق به مسيرة الصراع ، وجاءت النتائج كلها لتبرهن على صحة تلك القرارات، ولتبرهن بطريقة غير مباشرة على « الشجاعة العالية » التي تميزت بها السيرة القيادية « لخالد بن الوليد » ولعل العودة إلى هذه السيرة واستعراض دقائقها كافية لابراز مدى الصحة في قرارات خالد .

تولى « خالد » أول قيادة له بعد إسلامه – بالانتخاب – في غزوة مؤتة – وكان قد سقط القادة الذين عينهم الرسول ﷺ للقيادة ، ووجد « خالد » أن الاستمرار في المعركة هو ضرب

من الانتحار بسبب الفارق الكبير في ميزان القوى ، فقرر خالد الانسحاب ، وكان قراره صحيحاً . وخاض « خالد » معركة « أم زمل » ضد المرتدين وقرر بعدها التوجه مباشرة إلى « البطاح » وعارضه بعض القادة في ذلك ، وكان قرار « خالد » صحيحاً لأنه يستند إلى مبدأ استثمار النصر وعدم السماح لقوات العدو باعادة تنظيم مقاوماتها . وفي « ذات السلاسل » قرر خالد الاشتباك مع « هرمز » مباشرة ، وكان ذلك القرار صحيحاً إذ أنه منع قوات الفرس من التجمع . وفي موقعة « الولجة » كان لقرار « خالد » بخوض المعركة مباشرة دوره الكبير في حسم الصراع . وكان قرار « خالد » في فتح « الحيرة » صحيحاً ، إذ أن تشكيل مجموعات قتالية لمجابهة مجموعات المقاومات قد أعاق هذه المقاومات عن تبادل الدعم وتنسيق التعاون فيما بينها . ويمكن تجاوز كل المواقف للوصول إلى « قرار موقعة اليرموك » حيث تظهر صحة قرار خالد في كل مرحلة من مراحل تنظيم المعركة وادارة القتال فيها . وكانت قرارات خالد صحيحة أيضاً في مجال علاقة القائد بقواته ، بمثل ما كانت قراراته صحيحة في مجال علاقته مع أعدائه. فهو لم يشجع « عدي بن حاتم الطائي » على حرب « بني أسد » نظراً لوجود تحالف بين طيء وأسد ، وطلب إلى « عدي » النزول عند ارادة قومه الراغبين في حرب « قيس » وقال له : « ان جهاد الفريقين جهاد ، لا تخالف رأي أصحابك وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط » .

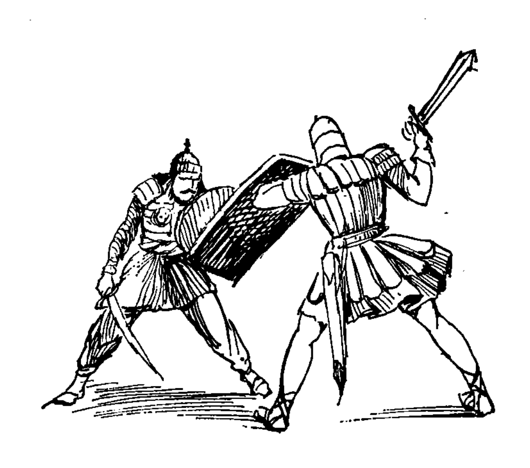
٥ – حماية المرؤوسين - وادارة الحرب :

وكان من أهم نتائج قرارات « خـــالد » الصحيحة هي في « حماية المرؤوسين » فقـد اتخذ خالد قراره في الانسحاب من معركة « مؤتة » وكان في ذلك حمـــاية للمسلمين ، واستخدم « خـــالد » أسس تصعيد الحرب و « حرية العمل العسكري المطلقة » لحماية المسلمين ، وطبق مبـــادىء الحرب التقليدية بكفاءة عالية « المباغتة والمبادأة والحركية » الخ .. وكان في ذلك حماية المسلمين . وتبقى « كفاءة خالد في ادارة الحرب » هي أفضل وسائله لحماية المرؤوسين .

كان « خالد » شديد الاهتمام بمعرفة «نوايا أعدائه » فـكان يستخدم كل وسائط الاستطلاع المتوفرة لجمع المعلومات (العيون أو الجواسيس ، الاستطلاع بالقوة ، مراكز المراقبـة الثابتـة أو المسالح) وكان يمارس بنفسه وبصورة دائمة استطلاع مسرح الأعمال القتالية (الاستطلاع الشخصي) ثم كان يتخذ قراره على أساس معطيات ثابتة وواضحة (العدو – الأرض – الأصدقاء) وكان ذلك سبباً في اتخاذ القرارات الصحيحة ، وكان خالد بعد ذلك ينظم قواته وفقاً لمـا يفرضه الموقف ، ثم يعمل على إدارة القتال ، متابعاً تطوير المواقف حتى ظهور نقطة ضعف العـدو وعندئذ يوجه خالد ضربته الحاسمـــة ، وتنتهي المعركة بإبادة قوات العدو ومطاردتها والقضاء عليها ، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة استثمار النصر عن تصعيد القتال والبحث عن معركة جديدة .

وكان كل عمل وكل اشتباك يتطلب إعادة تنظيم للقوة ، وليس ذلك كله بالعمل السهل ، لا سيما عند وضع هذا العمل في إطاريـــه (الزمني والمكاني) .

لقد كان « حرص خالد على حماية مرؤوسيه » عامــلاً دون ريب لاكتساب ثقتهم المطلقة ، وعاملاً أيضاً لمبادلته وفاء بوفاء، فكان المجاهدون يندفعون لحمايتـــه ، ويتنافسون على افتدائه بأنفسهم ، ويتسارعون لإطاعة أوامره وتنفيذها. وكان في ذلك بعض عوامل النصر .



ب ــ خالد بن الوليد وقوات العرب المسلمين

١ – الاستعداد الدائم للقتال :

بقيت القوات التي قادها « خالد بن الوليد » في حالة حركة دائمة ، منذ انطلقت من المدينة المنورة لحروب الردة حتى حررت العراق ثم انتقلت لتحرير الشام. واشتبكت هذه القوات بمعارك كثيرة ، وخاضت حرباً متصلة وهذا في حد ذاته برهان كاف عن الإستعداد الدائم للقتال . وكان « خالد » نفسه (**لا ينام ولا ينيم ولا يخفى عليه من أمور - أعدائه - شيء . عيونه ذاكية وهو معني بما يليه**) وهذا يعني ببساطة بقاء القوات في حالة حرب دائمة لمدة أربعة أعوام تقريباً . سقط خلالها من سقط ، واستشهد من استشهد ، واستبدل من استبدل ، ولكن كتلة القوات الرئيسية بقيت كما هي ، لم تتعبها المسيرات الشاقة في الليل أو النهار ، في الحر أو البرد ، كما لم تتعبها الأعمال القتالية المرهقة ، ويمكن تصور العبء الكبير الذي احتملته قوات المجاهدين في سبيل الله إذا ما تمت مقارنة منجزاتها وأعمالها بحجم قوتها

العددية. فقد كان حجم القوات – على ما هو معروف – قليلاً، وكانت الأعباء ثقيلة ، فقد كان على المقاتلين ممارسة أعمال الأمن والاضطلاع بأعمال الحراسة ، وتأمين الشؤون الإدارية ، وعدم التقصير في الفروض والعبادات – الصوم والصلاة – وقد أجاز خالد المجاهـــدين بالإفطار في بعض معاركه ، كما كان يتم جمع الصلوات في بعض الحالات. ولكن ذلك كله في إطار متكامل مع أعمال الحرب وكره القتال . (**كانوا آساداً في النهار نساكاً في الليـــل ، لا يفضل من مضى منهم عمن لم يستشهد إلا بفضل الشهادة**) وقد عرف أعداء المسلمين خصائص جيش المجاهدين في سبيل الله وفضائله ، وكان من الطبيعي ألا يتعرض جيش كهذا للمباغتة، أو يجابه مأزقاً من مآزق الحرب المعروفة ، فقد كانت القوات في حالة استنفار دائمـاً – تسعى للشهادة ، وتعيش تحت ظلال السيوف طلباً للجنة . وتظهر « فضيلة » الاستعداد الدائم للقتال في جيش المجاهدين تحت راية العقاب من خلال اندفاعهم للقتال بعد كل مسيرة طويلة وشاقة بقدر ما تظهر أيضاً من خلال تحركهم الدائم والمستمر . وقـــد عرف (تاريخ فن الحرب) جيوشاً كثـيرة قامت بمسيرات طويلة وأعمال قتالية عـديدة ، ولكنه لم يعرف أبداً جيشاً في حجم جيش خالد بن الوليد قام بمثل ما قام بـــه هذا الجيش من أعمال وفتوحات . وهذا هو البرهـان الحاسم على الاستعداد الدائم للقتال في جيش خالد بن الوليد .

٢ – الروح المعنوية العالية :

ما كان باستطاعة خالد بن الوليد ممارسة قيـــادته بمثل تلك القـدرة وبمثل تلك الكفاءة ، لولم يكن وقواته متمتعين بأعمق مشاعر الايمان . ولم يكن باستطاعة قوات المجاهدين في سبيل الله احتمال « كره القتـال » وقبول كل المصاعب والمشاق لولم يكن الرصيد المعنوي أكبر مــن كل تقويم ، وأقوى من كل تصور أو تقدير .

لقد اعترف العالم كله ، في القديم والحديث ، لجيوش المجاهدين في سبيل الله بقوتهم المعنوية الرائعة ، وقد يكون من الصعب التمييز في هذا المجال بين جيش خـالد بن الوليد ، والجيوش التي كانت تعمل تحت قيادة الآخرين من قـادة العرب والمسلمين ، فالروح المعنوية هنا تستمد قوتهـا من العقيدة الدينية للمسلمين أكثر مما تستمد قوتهـا من عوامل موضعية أو طارئة . ولكن ليس بالامكان أيضاً انكار ما كان لخالد بن الوليد من دور في دعم الروح المعنوية للمجاهدين ، وكان دور خالد المعنوي يتمثل في مجموعة من المعطيات :

١ – الثقة المطلقة بكفاءة خـالد – سيف الله – وحتمية الانتصار في كل معركة يقودها .

٢ – اعتماد خالد على القادة الأكفاء ، وتقديم الشجعان من الفرسان . أمثال القعقاع بن عمرو التميمي ، وضرار بن الأزور وسعيد بن زيد وعكرمة بن أبي جهل وسواهم .

٣ – تعزيز كل نصر بنصر جديد .

وقد لا تكون هناك حاجة لابراز مقدار الثقة التي يستمدها المقاتل من قائده ، ودور هذه الثقة في رفع الروح المعنويـة أو احباطها . فقد قاد « خالد بن سعيد » جيشاً من المسلمين توجه به إلى الشام ، واستطاع الروم تدمير هذا الجيش مما اضطره إلى الانسحاب بحيث وصلت فلوله إلى « ذي القصة » قرب المدينة . وخسر المسلمون معركة الجسر – انظر كتـاب « سعد بن أبي وقاص » ووصلت فلول القوات إلى المدينة . وتبرهن الحادثتان على مقدار الدور الذي يمارسه القائد في رفع الروح المعنوية أو احباطها بالنسبة لمجموعة من الجيوش تتمتع بخصائص واحدة . وكان « خالد بن الوليد » يعرف أهميـة الروح المعنوية بالنسبة للمقاتلين ، ويدرك دورها في المعاوضة عن ضعف جيش المسلمين في العدد والعدة، ولهذا فقد كان يحرص أبداً على تجنب كل ما من شأنه اضعاف هذه الروح أو احباطها ،وهذا ما يفسر غضبه الشديد عند ظهور مقاومة قوية ،أوتعرض قواته لخسائر كبيرة – نسبياً – على نحو ما حدث في «الثني» ولهذا كان يعمل على تصعيد الحرب حتى ذروتها القصوى بواسطة أعمال الإبادة ضد المقاتلين المسلمين للأعداء . وكثيرة بعد ذلك الشواهد التي تبرهن على الروح المعنوية العالية عند خالد بن الوليد وجنده، ومنها على سبيل المثال، اجابته على المجاهد الذي وقف يتأمل جموع الروم الكثيفة وحشودهم الضخمة فقال على مسمع من خالد : « ما أكثر الروم وأقلّ المسلمين »

فكان رد خالد : « بل قل : ما أقلّ الروم وأكثر المسلمين ! إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال . والله لوددت أن الأشقر براء من توجيه، وأنهم أضعفوا العدد » وكان جند خالد مثله في ثقتهم بأنفسهم ، فكانوا لا يترددون في لقاء أعدائهم مهما كثر عددهم أو تعاظمت عدتهم .

٣ – الكفاءة البدنية العالية - والقدرة على تحمل الصعاب :

قد يكون من الصعب بعد ذلك تقويم مقدار الكفاءة البدنية العالية التي كانت عليها قوات المسلمين . فالأعمال التي قاموا بانجازها تتجاوز حدود المقاييس المعهودة . آلاف الأميال أو الكيلومترات ، قطعها المجاهدون وهم على صهوات جيادهم في الصحاري والسهول والجبال « حتى فقد حصان خالد توجيه – أي حافريه – وبات يشكو لخالد ما أصابه » لقد تعب الحصان ولم يتعب الفارس ، وما حمل الحصان بقدر ما احتمل الفارس . وقد يكون من الطبيعي أن يتعب الفرس ولا يتعب الفارس ، فالروح المعنوية والهدف العظيم الذي ينشده الفارس هو بعيد عن ادراك الفرس ، وهو ما أعان الفارس على احتمال ما يحتمله .

لقد برهنت الأعمال القتالية على تلك الكفاءة البدنية العالية للمجاهدين في سبيل الله والتي تستمد معينها الذي لا ينضب من الروح المعنوية العالية . ولكن تلك الكفاءة البدنية عند خالد تفوق حد التصور وتصل إلى مرحلة الإعجاز . لقد كان على

« خالد » أن يقوم بأعمال المجاهدين ويشاركهم أعباء المسير والتحرّك وكره القتال ، وكان عليه فوق ذلك الاحتفاظ بتفكيره السليم وذهنه المتوقد وصفاء عقله في أصعب الظروف من أجل اتخاذ القرارات الصحيحة ومن أجل إدارة الحرب . ومعروفة هي العلاقة الجدلية بين (الصفاء الذهني ، والتعب الجسمي أو الجسدي) فكيف برجل مثل خالد يحتمل ذلك كله ثم هو (لا ينام ولا ينيم) . وكان أخوة خالد من القادة على مثل كفاءته ، وليست هناك حاجة بعد ذلك للبرهان على قوة ذلك الدافع العميق الذي كون العرب تكويناً جديداً ، فجعل منهم قوة تتجاوز في قدرتها المقاييس التي عرفها العالم من قبل ومن بعد – إنها قوة الإيمان الراسخ كالجبال بحتمية اداء الواجب ورفع رسالة الإسلام عالياً لتعريف الناس بها، وحملهم على الاقتناع بها، ولو لم تكن للمسلمين مثل تلك القوة المعنوية الهائلة ، لما أمكن لهم اقناع غيرهم بها ، وتصبح الكفاءة البدنية في هذه الحالة هي الوسيلة الخاضعة لإرادة الروح المعنوية .

٤ – الانضباط والطاعة :

يقوم بلال الحبشي في جامع « حمص » فيعقل « خالد بن الوليد » ويستجوبه على سمع المسلمين وأمام بصرهم ، **ويخضع قاهر امبراطوريتي «الفرس والروم» لبلال، ويسلمه قياده ، دون شعور بالحمية ، حمية الجاهلية ، دون شعور بالمهانة ، مهانة القيم**

المادية التي دمرها الاسلام ، وأصبحت هذه الحادثة نموذجاً تعتز به الدنيا وتضربه للعالم في موضوع (الانضباط والطاعة) وقد تعرض (جبلة بن الأيهم الغساني)لحادثة أصغر من هذه – عندما وطأ أعرابي رداءه في الحج ولطمه، مما حمل أمير المؤمنين«عمر» على ادانته ، فكان ذلك سبباً في ردته والتحاقه بالروم . ذلك هو الفارق المميز بين رجل « عمرَ الإيمان قلبه » ورجل « لم يقر الايمان في صدره » وكلاهما عاشا في وقت واحـــد ، وعصر واحد . ويصبح من الطبيعي بالنسبة لقائد يأخذ نفسه بهذا المأخذ ، ويلزمها مثل هذا السلوك ، أن يطالب المجاهدين معه بمثل هذا الانضباط الصارم والذي ينطلق قبـــل كل شيء من الواجب المشترك الذي يحمل أعباءه القائد وجنده . وإن فهم أبعاد هذا الانضباط الصارم يجعل من السهل معرفة كيفيـــة الاستجابة التي كان يظهرها المجاهدون عندما يطلب إليهم الاضطلاع بواجباتهم القتالية ، ولقد تميزت كثير من جيوش العالم القديم والحديث بانضباطها الصارم – بداية من خضوع قبائل الهون – لقيادة أتيلا – ومروراً بجيوش التتار وخضوعها لجنكيز خان وتيمورلنك ونهاية بالجيوش الألمانية – النازية – ولكنها كلها لم تبلغ يقيناً ما وصل إليه الانضباط في الجيوش الإسلامية. ذلك أن تلك الجيوش كلها ، كانت لها ظروف مختلفة، وكانت تحمل – بمجموعها – أقل مما احتملته جيوش المسلمين من كره القتال ، ثم هي أظهرت – في بعض مراحلها نوعاً من الاسترخاء في تنفيذ الأوامر وفي التمرد على بعض الضوابط .

ولكن جيش «خالد» أقبل على تنفيذ كل أعماله القتالية بانضباط طوعي لم يعرف العالم له مثيلاً من قبل ومن بعد . وقد يكون لشخصية خالد القيادية دور في ذلك – دون ريب – وقد يكون للخطر المتوقع دور أيضاً في تحقيق التلاحم بين قوات المسلمين وقياداتهم. ولكن يبقى الدور الأساسي هو دور العقيدة الدينية الإسلامية – التي فرضت على المسلمين انضباطاً فريداً في مفهومه ، إنه الانضباط الطوعي للقائد – طالما انه بقي خاضعاً لطاعة الخالق ، منفذاً لأوامره ، حاملاً لرسالته ، مؤدياً لفروضه .

٥ – خالد وحرية العمل :

تثير ظاهرة « حرية العمل » عند « خالد بن الوليد » قضية من القضايا العسكرية الصعبة التي طالما شغلت الباحثين في مبادىء « العمل العسكري » ويفضل القادة العسكريون دائماً تنفيذ واجباتهم في إطار من « حرية العمل المطلقة » في حين تتجه الأنظمة والقوانين « لتقييد حرية العمل العسكري » وتقنينه بحيث يكون خاضعاً « لغاية السلم » أكثر مما يكون خاضعاً « لهدف الحرب » . وتظهر صعوبة تقييد حرية العمل العسكري خاصة في الحروب الثورية ، وفي الحروب التي تخوضها الشعوب بحيث يكون من الصعب التمييز بين « المحارب وغير المحارب » وتتعاظم الصعوبة عندما يبحث القائد عن « الحسم في الصراع المسلح » . وعندما يريد ضمان نوع من « الأمن »

النسبي لقواته . ولقــد كان « خالد بن الوليد » من القادة الذين لا يستطيعون ممارسة أعمالهم القتالية إلا في إطار من حرية العمل المطلق ، كما انه كان يبحث أبداً عن « الحسم في الصراع المسلح » ولهذا فقــد يكون من الطبيعي أن يتعرض لعــدد من المآزق الصعبة ، حيث كان يجد نفسه مرغماً على التضحية ببعض القيم من أجل اكتساب بعض الفضائل الحربية ، وأبرزهـا مبدئي « الحسم وأمن القوات » .

كان المأزق الأول الذي تعرض لها له « خالد بن الوليد » هو **إبادته « لبني جذيمة »** مما جعله عرضة للاتهام بأنه انتقم « لثأرات الجاهلية » . وعمل الرسول ﷺ على معالجة هذا المأزق عندما أوفد « علي بن أبي طالب » وكلفه بدفع « دية » كل من قتل ظلماً من المسلمين وكان المأزق الثاني يوم هاجم **« خالد بن الوليـد » مالك بن نويرة في حروب الردة** . وقد يكون من المناسب هنا التعرض للموضوع ببعض الاسهاب نظراً لما جاء من تفاسير متناقضة .

كان من عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه لقادتـه (أن إذا غشيتم داراً من دور الناس فسمعتم فيها أذاناً للصلاة ، فأمسكوا عن أهلها حتى تسألوهم ما الذي نقموا ! وإن لم تسمعوا أذاناً فشنوا الغارة فاقتلوا وحرّقوا .. وإن أجابوكم الى داعية الاسلام فسائلوهم عـن الزكاة ، فان أقروا فاقبلوا منهم ، وإن أبوا فقاتلوهم)[1] وعندما فرغ « خالـد » من « فزارة

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٢٧٦ - ٢٨٠ والكامل في التـاريخ - ابن الأثير ٢/٢٤١ - ٢٤٣ .

وغطفان وأسد وطيء » توجه إلى « البطاح » وبها « مالك بن نويرة » الذي كان قد فرق قومه ونهاهم عن الاجتماع ، وقال لهم: « يا بني يربوع ، إنا دعينا إلى هذا الأمر فأبطأنا عنه فلم نفلح . وقد نظرت فيه فرأيت الأمر يتأتى لهم بغير سياسة ، وإذا الأمر لا يسوسه الناس ، فإياكم ومناوأة قوم صنع لهم فتفرقوا وادخلوا في هذا الأمر ، فتفرقوا على ذلك ولما قدم « خالد » البطاح بث السرايا وأمرهم بداعية الاسلام وأن يأتوه بكل من لم يجب وإن امتنع أن يقتلوه . وجاءته الخيل « بمالك بن نويرة » في نفر معه من بني « ثعلبة بن يربوع » فاختلفت السرية فيهم، وكان فيهم « أبو قتادة » فكان فيمن شهد أنهم قد أذّنوا وأقاموا وصلوا . فلما اختلفوا بهم فحبسوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء، فأمر « خالد » منادياً فنادى « دافئوا أسراكم » وهي في لغة كنانة القتل فظن القوم أنه أراد القتل . ولم يرد « الا الدفء » فقتلوهم فقتل « ضرار بن الأزور » مالكاً بن نويرة . وسمع خالد الضجيج ، فخرج وقد فرغوا منهم ، فقال : إذا أراد الله أمراً أصابه. واختلف القوم فيهم. فقال أبو قتادة : هذا عملك، فزجره خالد ، فغضب ومضى حتى أتى أبا بكر ، فغضب « أبو بكر » حتى كلمه « عمر » فلم يرض إلا أن يرجع اليه فرجع اليه حتى قدم معه المدينة وتزوج خالد « أم تميم » امرأة « مالك بن نويرة » وكانت العرب تكره النساء في الحرب وتعايره — فقال عمر لأبي بكر : (إن سيف « خالد » فيه رهق

فإن لم يكن هذا حقاً ، حق عليه أن تقيده » وأكثر عليه في ذلك . فقال : « **هيه يا عمر ، تأول فأخطأ ، فارفع لسانك عن « خالد » فاني لا أشيم – أي لا أغمد – سيفاً سله الله على الكافرين** » وودى مالكاً – وكتب إلى « خالد » أن يقدم عليه ففعل . ودخل المسجد وعليه قباء له صدأ الحديد ، وقد غرز في عمامته أسهما . فقام إليه « عمر » فنزعها ، وحطمها وقال له : « أرئاء ، قتلت امرءاً مسلماً ، ثم نزوت على امرأته ، والله لأرجمنك بأحجارك » وخالد لا يكلمه ، يظن أن رأي « أبي بكر » مثله . ودخل على « أبي بكر » فأخبره الخبر . واعتذر إليه فعذره وتجاوز عنه ، وعنفه في التزويج الذي كانت عليه العرب من كراهته أيام الحرب . فخرج خالد و« عمر » جالس، فقال : هلم إليَّ يا ابن « أم سلمة » فعرف عمر أن « أبا بكر » قد رضيَ عنه، فلم يكلمه . وقدم « متمم بن نويرة » على« أبي بكر» يطلب بدم أخيه ، ويسأله أن يرد عليهم سبيهم . فأمر « أبو بكر » برد السبي . وودى « مالكاً » من بيت المال . وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولا وزعته « أصحابه » . ولما قدم « متمم بن نويرة » على « عمر » قال له : ما بلغ بك الوجد على أخيك ، قال : « بكيته حولاً حتى أسعدت عيني الذاهبة عيني الصحيحة ، وما رأيت ناراً قط إلا كدت أتقطع أسفاً عليه ، لأنه كان يوقد ناره إلى الصبح مخافة أن يأتيه ضيف ولا يعرف مكانه» . قال : أنشدني بعض ما قلت فيه : فأنشده مرثيته التي يقول فيها :

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فلما تفرقنا كأني ومالكاً لطول اجتماع لم نبت ليلة معــاً

فقال عمر : لو كنت أقول الشعر لرثيت أخي زيداً ، فقال متمم : ولا سواء يا أمــير المؤمنين ، لو كان أخي صرع مصرع أخيك لما بكيته . فقال عمر : مــــا عزاني أحد بأحسن مما عزيتني به .

تظهر «القصة» بوضوح الفارق المميز بين الأسلوب القيادي للخليفة «أبو بكر» رضي الله عنه ، من خلال القول : (كان « أبو بكر » لا يقيد من عماله ولا وزعته) وبــين الأسلوب القيادي للخليفة « عمر » رضي الله عنه من خلال قوله : (إن سيف « خالد » فيه رهق ، فان لم يكن هذا حقاً ، حق عليه أن تقيده) وقد كان هذا الفارق بين « اطلاق حرية العمل » عند أبي بكر وتقييده عند « عمر » هو العامل الحاسم الذي تسبب في عزل « خالد » عن قيادته في زمن « عمر » .

أما بالنسبة « لمالك بن نويرة » فقد كان« خالد » يعمـــل في منطقة« مرتدين » على كل حال ، ولم يكن باستطاعته إلا معالجة الأمور من منطلق «الحذر ومتطلبات الأمن » وقد استشهد عدد من الصحابة والقادة في هذه الحرب — حرب الردة — نتيجـــة تقييد حرية العمل ، ونتيجة التضحية بمبدأ الأمن لحساب « القيم الاخلاقية والمبادىء الدينيــة » فكان من الطبيعي أن يتصرف

« خالد » مع مـا يتطلبه الموقف وبحسب طبيعته في البحث عن الحسم في الصراع المسلح . وقد كان خالد يخوض حرباً أهليـة يصعب فيها التمييز بين« المرتدين — و — غير المرتدين » وفرزهم بدقة . وعلاوة على ذلك فقد كان هناك خطأ في فهم ما يريده « خالد » من ادفـاء الأسرى حتى قـال خالد : إذا أراد الله أمراً أصابه . أما بالنسبة لزواج « خالد » من زوجـة « مالك » فهو أمر لا علاقة له بمصرع « مالك » ولو أن مصرع « مالك » و« الزواج » قد تسبب في ظهور رابطة بين الحادثين، وكل ما في الأمر ، أن العرب كانت تكره مثل هذا الزواج أثناء الحرب. وهذا ما أغضب الخليفة عمر بن الخطاب . وقد جاء رثاء « تميم » لأخيه بعد ذلك فأثار المشاعر التي حملها الشعوبيون وأعداء الإسلام واستخدموها لتشويه سمعة « خالد » والإساءة إليه ، وقد تعتبر الحادثة بمجموعها غير جديرة بالتوقف عندها ، فكثيراً ما حفل تاريخ الحروب بمفارقات تتجاوز كثيراً في خطورتها وفي حجمها ما ارتكبه «خالد»إن كان هناك ما يمكن أن يؤخذ عليه ، ولعل إبراز الحادثـة بمثل هذا الحجم الذي تم إبرازها فيه إنما هو شهادة « براءة » لفن الحرب الاسلامي الذي يوازن بدقة بين « غاية السلم » وبين « هدف الحرب » ومن خلال هذه الموازنة الدقيقة ، كان الخليفة أبو بكر يتجاوز مـا يفعله « خالد » في الحرب . ويعالجه بما تتطلبه غاية السلم .

تكررت بعد ذلك مثل حادثة، «مالك بن نويرة » في غزوة « مصيخ بني البرشاء »حيث قتل« خالد » في إغارته «عبدالعزى

ابن أبي رهم ولبيد بن جرير » وهمـــا مسلمان معهما كتاب من « أبي بكر » مما أثار حفيظة « عمر » ولكن « أبو بكر » عالج الموقف بصورة صحيحة عندما علق على الحادث بقوله : « كذلك يلقى من ساكن أهل الحرب » وأوصى بأولادهما . ولقد كان من الصعب على « خالد » ورجاله في إغارتهم الليلية المباغتة إجراء عملية الانـذار لاخراج المسلمين الاثنين والتضحية بعامل المباغتة والحسم ، مع العلم انه لم يكن من المتوقع وجود رجلين مسلمين في معسكر أعداء المسلمين . ولعل حجة « خالد » وهو قائـــد لعمليات العراق ، دون إذن من الخليفة « أبي بكر » أو إعلامه هي نموذج لطبيعة « خالد » التي تتحرر من كل القيود — حتى في الأمور الخاصة — كالحج — وقد عاتبه الخليفة على مغادرته مسرح الأعمال القتالية دون إذن بذلك . في حين كان رأي « عمر » هو العزل .

لقد عبر « خالد » عن رغبته في ممارسة أعمـاله القتالية ضمن إطار « حرية العمل المطلقة » ولو كان في ذلك مخالفـة لأوامر الخليفة ، وذلك عند توجهه لقتال « مالك بن نويرة » ومخالفـة الأنصار له ، فقال لهم « قد عهد إليّ أن أمضي ، وأنا الأمير ، ولولم يأت كتاب بما رأيته فرصة وكنت إن أعلمته فاتتني لم أعلمه حتى انتهزها ، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه عهد لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به » .

لقد كان من عادة الخليفة «أبو بكر» تحديد «هدف الحرب»

وترك مسؤولية التنفيذ على عاتق قائـد القوات أو قائد مسرح العمليات ، ويظهر ذلك واضحاً في كل أوامر الخليفة ، في حين كان أسلوب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مغايراً لذلك ، فقـد كان « عمر » رضي الله عنه يحدد أهداف الحرب ، ويختـار الوسائل المناسبة ، ويحاسب قادته على كل تصرف من تصرفاتهم ويحدد لهم من وسائل عملهم ، وقد نجح خالد نجاحاً رائعاً عندما كان يمارس قيادته في عهد الخليفة أبي بكر ، ولم يحقق مثل هذا النجاح عندما تولى عمر إمارة المؤمنين ، وقد أظهر « خـالد » كفاءته القياديـة مرة واحدة – على الأقل – عندما توفرت له فرصة العمل في إطار من حرية العمل المطلقة وذلك أثناء غزاته لما وراء الدروب – سنة ١٧ هـ – وكانت مغانمه برهاناً على مثل هذا النجاح الرائع . ولكن هـذا النجاح بقي مقيداً في إطار « الهدف السياسي » و « قواعد إقامـة المجتمع الاسلامي » إذ سرعان ما عمل أمير المؤمنين على « محاسبة خـالد » وتجريده وعزله لأنه وجد في سلوكه مـا يتجاوز متطلبات بناء المجتمع الاسلامي ، لا سيما في مجال تحقيق التوازن بـين مختلف مسارح العمليات، بعد أن اتسعت أبعاد هذه المسارح ، وأصبحت إدارة الحرب فيها تتطلب قيادة استراتيجية أكثر مما تتطلب من كفاءة عالية على مسرح العمليات . وقد برهنت مسيرة الأعمال القتالية وتطور الفتوحات على صحة هذه الموازنة ودقتها .

وبعد فكثيراً ما تتم مقارنة قائد بقائد أو تشبيه معركة

بمعركة أو حرب بحرب ، وقد يكون ذلك غير صحيح تماماً . فالقـــادة نُسج مختلفة لهم مكوناتهم ، ولهم ظروفهم ، ولهم خصائصهم وطرائقهم وأساليبهم ، وكل هذه من المتغيرات التي لا تخضع للقياس الكمي أو التقويم النوعي ، حتى لو انتجت تلك المتغيرات بعض ملامح التشابه ، وتبقى الفوارق المميزة للتباين أكبر بكثير من بعض الملامح المتشابهة . ولكن إذا كان من الصعب مقارنة قائد بقائد أو موازنة معركة بمعركة فليس من الصعب أبداً مقارنة مبدأ بمبدأ أو الموازنة بين قرين وقرين على أساس القيم الواحدة . وتتزايد العملية سهولة عند إجراء المقارنة في إطار وحدة العامل الزمني ووحدة العامل الجغرافي .

ضمن حدود هـــذا الإطار يمكن مقارنة « خالد » بالخليفة « عمر بن الخطاب » رضي الله عنهما . فقد كان الرجلان مميزان بخصائصها القيادية ، وكان كل واحد منهما نسيجاً وحـــده في التاريخ . كان « خالد » قائداً رائعاً للعمليات ، بسرعته في تقدير الموقف الصحيح ، وببداهته في اتخاذ القرار المناسب، وبكفاءته العالية في تنظيم المعركة وقيادة القوات وحسم الصراع المسلح .

وكان الخليفة عمر ، قائداً استراتيجياً لا نظير له ولا قرين ، في تقديره لمجموعـة المواقف التي يجابهـا على مختلف مسارح العمليات ، وفي تحديد الأفضلية المطلقة للأهداف المتتالية ، وفي تحقيق التوازن بـين متطلبات الجبهات المتباينة على ما بهـا من تباعد واختلاف .

وكان نجاح « خالد رائعاً » عندما كانت أساليبه في العمليات متوافقة مع الأساليب الاستراتيجية التي يطبقها الخليفة أبو بكر في ادارة الحرب . ولم يكن نصيب خالد من النجاح مماثلاً عندما تعارضت أساليبه في العمليات مع أساليب الخليفة « عمر » في إدارة الحرب وتطبيق أسس الاستراتيجية العليا وليس انتقاصاً من « عبقرية خالد » إن هو تعارضت أساليبه مع أساليب أمير المؤمنين « عمر » وليس قصوراً في « عبقرية عمر » إن هو اختلف في طرائقه عن الخليفة أبو بكر أو تعارض في سياسته الاستراتيجية مع قائد العمليات « خالد » .

لقد تغيرت الظروف كثيراً ما بين خلافة « أبي بكر » وخلافة« عمر » رضي الله عنهما. فقد نشأت في عهد أمير المؤمنين « عمر » جبهات جديدة، واتسعت كثيراً دوائر الصراع المسلح، وظهرت متطلبات جديدة لميادين القتال ، وبرهنت النتائج على كفاءة أمير المؤمنين عمر في مجابهة كل المتغيرات .

وتبقى القضية الأساسية في اختلاف « عمر » مع « خالد» قضية اختلاف بين السياسة الاستراتيجية وبين العمليات « كان أمير المؤمنين عمر مركزي القيادة، وكان القائد خالد من أنصار حرية العمل المطلقة في مسرح العمليات » وقد يكون ذلك وحده كاف لابراز ضرورة اخضاع العمليات للسياسة الاستراتيجية، فكان لا بد من عزل خالد عن العمليات لمصلحة

السياسة الاستراتيجية . وكان في ذلك انتصار للذات قبل كل شيء ، وانتصار للمبادىء على الأشخاص .

كان أمير المؤمنين« عمر » ينظر بتقدير كبير إلى « أبي سليمان – خالد » وكان « خالد » يحترم ويقدر كفاءة قائده « عمر » وبقي التقدير الصحيح هو قناة الاتصال الدائم فيما بينهما . وقضى الاثنان إلى ربهما ، وكلاهما يحمل لآخرته ما قدمه للإسلام والمسلمين من أمجاد خالدة حفظها لهما التاريخ وحفظتها لهما أجيال المسلمين إلى آخر دنيا الاسلام والمسلمين .



خالد ــ وفن الحرب

وبعـــد ..

قد يكون من الصعب تقويم منجزات « خالد بن الوليد » وما تركه من أثر في « فن الحرب » . إنه أسطورة الأجيال ، وخالد كخلود الجبال الأوابد ، نقرأ سيرته ونعيش حياته فنجد فيها عالماً لا حدود له . وقد تراكمت الأبحاث في سيرة « خالد » رضي الله عنه حتى كأنه هو الفتح الإسلامي ، أو كأن الفتح هو خالد بن الوليد ، هذا في حين تعمل بعض الدراسات على تجريد خالد من كفاءاته ، وتستمد من بعض تصرفاته الفرديــــة ــ النادرة ــ لتتخذ منها وسيلة للطعن والتشكيك .

إن « خالد بن الوليد » قبل كل شيء إنسان حقيقي لهنوازعه وانفعالاته وله طبيعته وتكوينه ، فهو إذا ما وقع في خطأ ، أو إذا ما ارتكب عملاً لم يألفه العرف ، فليس في ذلك ما ينتقص من كفاءته القياديـــة ، لا سيا وإن تلك الأخطــاء ــ حتى في حال

الأخذ بها – فإنه يجب إرجاعها إلى ظروفها الزمنية وعندئذ تتضاءل وتزول . ثم إن سيرة خالد – القائد – ذات مراحل متباينة : مرحلة البحث عن القيادة في الجاهلية ، ومرحلة التعلم من الإسلام تحت قيادة الرسول ﷺ ، ومرحلة القيادة – في عهد الخليفة أبي بكر .

ترى هل كان « خالد » ضربة حظ أصابت المسلمين في عصر فتوحاتهم ؟

إن تاريخ « فن الحرب » يعترف للحظ أو للصدفة بدورهما في اختيار القائد وتكوينه ، وقد اعترف أعداء خالد – في عصره – بهذا الحظ عندما قال أكيدر : « **أنا أعلم الناس بخالد، لا أحد أيمن طائراً منه ، ولا أحدٌ في حرب ، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه** » .

لقد أثار « خالد » الرعب في صفوف أعداء المسلمين ، وكان « الرعب » وسيلة خالد في بعض انتصاراته حتى بات كل من في الشام والعراق يتوقع ظهور خالد في كل مكان وفي كل وقت (انظر مسيرة خالد من العراق إلى الشام وقول شاعر المصيخ والنمرفيه) ولكن ذلك كله لا يمثل إلا وجهاً واحداً من وجوه خالد القيادية .

هنا لا بد من مقارنة « خالد » بأقرانه من قادة العرب المسلمين وعندئذ تظهر الحقيقة .

كان أبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص ومن أتى بعدهم أمثال عقبة بن نافع وقتيبة بن مسلم الباهلي وسواهم على مثل كفاءة خالد القيادية ، بل كان في صف قادة النسق الثاني من أظهروا كفاءة عالية لم تساعد ظروف الفتح على إبرازها كلها ،وهنا قد يكون من حسن حظ خالد أنه مارس قيادته في ظروف معينة أتاحت له إبراز كفاءته القيادية واستخدامها . لم يكن حظ الإسلام بخالد ، وإنما كان حظ خالد بالإسلام . وتلك هي الحقيقة . ويعود الفضل في البداية والنهاية إلى الإسلام الذي أتاح للعرب فرصة توحيدهم ، والذي حدد لهم واجبهم في الحياة والذي وضع لهم عقيدتهم القتاليةوحدد لهم مبادىء حربهم وأهداف سلمهم. ومن مدرسة الاسلام الواحدة تخرج جيل القادة الذين تميزوا بوحدتهم في التفكير وبوحدتهم في أساليب العمل ، وليس ذلك فحسب بل كون الاسلام جيش المجاهدين في سبيل الله تكويناً فريداً مما ضمن لجيل القادة انتصاراتهم وما النصر إلا من عند الله .



محتوى الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث : قيادة خالد بن الوليد

آ– خالد بن الوليد وفن القيادة

ب – خالد بن الوليد وقوات العرب المسلمين

